جوائز ناجي نعمان الأدبيَّة الهادفة

prix littéraires ciblés

premios literarios apuntados

naji naaman *'s*

targeted literary prizes

د. ميشال كعدي

لبـنـان

مَجدٌ وتاريـخ

دار نعمان للثقافة

ميشال سليم كعدي

وُلدَ في بلدة قوسايا *(زحلة – لبنان)* من أُسرة بسكنتاويَّة عامَ ١٩٤٤. أحرزَ شهادةَ الدُّكتوراه في فُقه اللُّغة العربيَّة من الجامعة اللُّبنانيَّة عام ١٩٧٣، وفي العام التَّالي إجازةً في الصِّحافة من جامعة القاهرة. إنصرفَ إلى الكتابة والتَّعليم في الجامعات والمعاهد والمدارس الكبرى. يتميَّزُ نَثرُه بأسلوبٍ جَماليٍّ خاصّ؛ من ألقابه: "فارس المَنابر وسيف الكلمة" *(جورج شكُّور)*، و"الخطيب المُفوَّه، خطيبُ المناسبات والجامعات" *(مي المرّ)*، و"ريشتو سَيف عَ منبر" *(سعيد عقل)*، و"خَليلُ الكلمة ونبراسُها" *(ناجي نعمان)*.

له عشرات المؤلَّفات، منها لدى دار نعمان للثقافة: آل كعدي في التَّاريخ الحديث؛ ماهر نجيب وهَّاب، شاعرُ المواقف؛ القصور اللُّغويّ، أسبابًا وحاجات *(جائزة الأديب متري نعمان للدِّفاع عن اللُّغة العربيَّة وتطويرها، ٢٠٠٨)*؛ ريمون عازار، شاعرُ المَجَرَّات الضَّوئيَّة. من كتبه أيضًا: المرأة في شعر الدّكتور زياد نجيب ذبيان؛ خليل فاخوري، شاعرُ الشَّباب والانطلاق؛ الأباتي سعد نمر بين الرُّؤيا والانفتاح؛ الدّكتور عبد العزيز محيي الدِّين خوجه، شاعرُ الرُّؤيا والتَّجديد؛ عبد الله باشراحيل، شاعرُ التَّجديد. دواوينُه منذ عام ١٩٥٩: حبيبتي إليك أكتب؛ قصائد داليا؛ أجملُ الأجمل؛ جرح الحرير؛ حبيبتي شاعرة؛ كلّ الحَلا *(باللُّبنانيَّة)*؛ له أيضًا: معلِّمو العالم *(مسرحيَّة)*؛ الهُدى، أبعاد روحيَّة؛ في رحاب الوِجدان *(مواقف منبريَّة)*؛ على دروب الحياة *(مقالات اجتماعيَّة)*؛ إلى عشرات القصص للأطفال، وسلاسل كتب مدرسيَّة.

عضو أكاديميَّة الفِكر في لبنان، واتِّحاد الكتَّاب اللُّبنانيِّين، وجمعيَّة أهل الفِكر، ومجمَّع الأدباء والمفكِّرين والفنَّانين والأساتذة الجامعيِّين اللُّبنانيِّين؛ كبيرُ أعضاء دار نعمان للثقافة الفخريِّين، ومُستشارٌ أوَّلُ في "لقاء الأربعاء" *(صالون ناجي نعمان الأدبيّ الثَّقافيّ)* الذي تنظِّمُه الدَّار.

"خَليلُ الكلمة ونبراسُها" هذا، لا تَبْزُّ يَراعَتَه المَشيقَةَ المُشَوَّقَةَ إلَّا عَلائقُه البَيْنإنسانيَّةُ النَّاضحَةُ رقَّةً ووَفاءً وتَعاضُدًا في زمنٍ طَغَى فيه التَّوَحُّشُ المادِّيُّ الأنسَنَةَ الَّتي، وَحدَها، تُميِّزُ الإنسانَ، ووَحدَها تكفَلُ بقاءَه على هذه البَسيطة.

ميشال كعدي، الأخُ والصَّديقُ ورفيقُ الكَلمِ والفَضائل، في كتابه الخامس من دار نعمان للثَّقافة، فَلْنَقرَأْه. وأمَّا عَهدي له فأنْ أسعى، إنْ أمَدَّ اللهُ عُمرًا، لأضَعَ إلى يَمين الخمسة، ولَو صِفرًا واحدًا!

ناجي نعمان

بُطولة إيلا الصُّوْريَّة

سألَ المَلِكُ " أشور" كِبارَ قُوَّادِه:
– أينَ نحنُ من صورَ؟ إنقَضَتْ ستَّة أشهرٍ، وجيشُنا يُعاني من المَتاعِبِ والحَرِّ، على هذه الشَّواطئ،هلاَّ أجَبتُمْ، أينَ نَحنُ من صورَ؟
– تَفصِلُنا عنِ المنطَقَةِ بِضعَةُ أميالٍ، أيُّها المَلِك العَظيمُ رَدَّ "بربورياش" أحَدُ مُرافِقيه.

في أيِّ حالٍ، كانَ "أشور" مُقتَنِعاً بِقوَّةِ "صورَ" وجَبَروتِها. وعلى رُغمِ ما يَعتَريه من هُمومٍ، طَلَبَ جَواداً مُسرَجاً، ليَقومَ بِنُزهَتِه المُعتادَة. إذا اطمأنَّ المَلِكُ بَعضَ الشَّيءِ، فَعَلائِمُ الاضطِرابِ باديَةٌ على وُجوهِ الجُندِ، لأنَّ "صورَ" عنيدَةٌ، ومنَ الصُّعوبَةِ بِمَكانٍ إذلالُها...
قالَت "إيلا" إحدى الأسيراتِ الصُّوريَّات، بجُرأةٍ مُتَمَيِّزَةٍ، بَعدَ كَلامٍ سَمِعَتهُ من رِجالِ "أشور" يَستَخِفُّونَ الحَربَ معَ أبناءِ بِلادِها:
– "صورُ" تمتنعُ على العادِيِّينَ من النَّاسِ.

وزادَتِ الفَتاةُ السَّمراءُ، الَّتي لوَّحَتها شَمسُ بِلادِنا: نَحنُ من لُبنانَ، نحنُ من "صورَ". حامِياتُنا لا تُقهَرُ، ولَقَد تَوَزَّعَتْ في أمكِنَةٍ على ساحِلِ البَحرِ المُتَوَسِّطِ، في "قادِز"، وقَرطاجَنَّةَ، ومَرسيليا، ومالطة، وصقليَّة، وسردانيا، وقورسقة، وفي مَطـــارِحَ كثيـــرَةٍ على الأرضِ. ولَتَعْـــلَمْ

قِيادَتُكُم، أنِّي كُنتُ مُقبِلَةً من جُبَيلَ حينَ قَبَضتُمْ عَليَّ. أقبَلتُ على مَتنِ مَركَبٍ من صُنعِنا، وجُبَيلُ تَبعُدُ عن "صورَ" نَحوَ ستِّينَ ميلاً.

صورُنا أمَدَّتْ بِلادَ العالَمِ بأحسَنِ المَراكِبِ، وها أنا بينكُمْ على مَقرُبَةٍ من مَدينَتي، حاضِرَةِ البِلادِ الفينيقيَّة.

صورُنا العَظيمَةُ، غَدَتْ من المُدُنِ الفَتيَّةِ الَّتي لا تُهزَمُ في عَهدِ مَليكِها "حيرام"، صَديقِ المَلِكِ "سُلَيمان".

وبينا هيَ تُتابِعُ، أسكَتَتها قَبضَةُ أحدِ الجَلاَّدينَ، وعلى الفَورِ، علَتِ الهُتافاتُ منَ السَّامِعينَ، تَطلُبُ إعدامَ الفَتاةِ السَّمراءِ، الفارِعَةِ القامَةِ، فَلَمْ يُسكِتهُم إلاّ أمرُ مَلِكِهِم، يَنقُلُهُ أحَدُ الحُرَّاسِ.

بَعدَ هُنَيهاتٍ من الصَّمتِ، قالَ "أشور" لِكَبيرِ مُرافِقيهِ:

– أحضِرِ الفَتاةَ الفينيقيَّةَ الأسيرَةَ إليَّ...

وهيَ في طَريقِها إلى المَلِكِ، سَمِعَتْ جُنديًّا يقولُ: أنتِ أسيرَةٌ، وها نَحنُ على أبوابِ "صورَ" فإنْ حاوَلَتْ مدينَتُكُم التَّحَرُّكَ في غيرِ صالِحِ "أشور" مَلِكِنا العَظيمِ، ستَتَحَطَّمُ، ويَموتُ من فيها...

مولايَ، "إيلا" الصُّوْريَّةُ في حَضرَةِ المَلِكِ.

– ما ظَنَنتُكِ بهَذِهِ الفِطنَةِ، بَل بِهذا الجَمالِ، قالَ المَلِكُ بِلُغَةِ بِلادِهِ.

– لا تَنسَ أنَّني من "صورَ"، أجابَتْ "إيلا".

– أوَتَتَكَلَّمينَ بِلُغَتِنا أيَّتُها الفَتاةُ؟

– أوَنَسيتَ أنَّ لُغَتَكُم، هيَ ابنَةُ أبجَدِيَّتِنا، ونَحنُ الَّذينَ فَكَكنا عُقَدَ الألسُنِ؟

المَلِكُ "أشور" أُعجِبَ بـــ "إيلا"، كما أدهَشَهُ شَعرُها وقامَتُها المَشيقَةُ، ونَيساناتُها العِشرونَ، وقالَ:
اجلِسي، أنتِ مَلِكَةٌ عَزيزةٌ علينا. إجلِسي قُبالَتي، ففي نيَّتي أن أرُدَّكِ سالِمَةً إلى مدينَتِكُم، الَّتي سأدخُلُها، وأنتِ على مَيسَرَتي زوجَةٌ لي.
صَرَخَت "إيلا" وأجابَتْ:
– لا، أنا أرفُضُ عَرضَكَ هذا. صورُنا أكبَرُ من الاستِسلامِ، أمَّا أنا فلا أقبَلُ بكَ زوجاً، لقَد أحبَبتُ واحِداً من وَطَني يَعمَلُ في صُنعِ المَراكِبِ، ولا أُحِبُّ إلاَّهُ.

أذهَلَتْ "أشور" جُرأةُ "إيلا"، واستَبَدَّ برأسِهِ على الفَورِ صُداعٌ كادَ يُفقِدُهُ وَعيَهُ، ونادى أحَدَ حُرَّاسِهِ، ليَستَعجِلَ طبيبَهُ الخاصَّ، فكانَ حُضورُ المَدعوِّ على جَناحِ السُّرعَةِ، ولَكِنْ من دونِ جَدوى، ولَمَّا عَجِزَ الطَّبيبُ، ولَم تُفلِحْ مَعَهُ العَقاقيرُ الطِّبِّيَّةُ، تَدَخَّلَت الأسيرَةُ الصوريَّةُ، وأشارَتْ إلى جُنديٍّ بأن يأتيَ ببَعضِ أنواعِ الأعشابِ، وقِطعَةٍ من الجِلدِ اللَّيِّنِ. وإذ انتَهَتْ من صُنعِ الدَّواءِ تَبَسَّمَ وقالَ:
– لَقَد خَدَمتِني. أرأيتِ كيفَ أبناءُ "صورَ" يَخدمونَ المَلِكَ "أشور"؟
أجابَتْ بابتِسامَةٍ تَحمِلُ السُّخريَةَ والهُزءَ:
– في عَمَلي لَكَ حقيقَةٌ إنسانيَّةٌ وَشَهامَةٌ ونُبلٌ، فَنَحنُ نَحتَرِمُ المَريضَ حتَّى يَشفى. ومن عاداتِنا أن نَشفِيَهُ، قَبلَ أن يذوقَ طَعمَ سُيوفِنا، إنْ كانَ عَدوًّا لَنا. لَو سألتَ قَبلَكَ مُلوكَ الدُّنيا، ومن حاوَلَ اجتِيازَ حُدودِنا، لعَلِمتَ أنَّ "صور" تَتَحَدَّى غَطرَسَةَ الأعداءِ وكِبرياءهُم، وَقُوَّةَ بِلادِ

"أشور". ومن دونِ تَرَدُّدٍ، رَمَتهُ بِكأسٍ زُجاجيَّةٍ من صُنعٍ فينيقيٍّ، وأتبَعَتها بِخَنجَرٍ، استَلَّتهُ من عُبِّها، وألقَتهُ مُضَرَّجاً بِدِمائِهِ، وتَناوَلَتْ سَيفَهُ وَصَرَخَتْ قائِلَةً: شَرَفٌ للسِّلاحِ أن تَتَقَلَّدَهُ نِسوةُ "صور".

ثُمَّ خَرَجَتْ بِمَديدِ قَوامِها، تُذهِلُ من تَبَدَّلَ من الجُنودِ.

قيلَ: قَدِرَتْ "إيلا" أن تُخَلِّصَ مَنْ أُسِرَ، وبَقِيَتْ وَحدَها قيدَ التَّحقيقِ.
وقيلَ أيضاً: إنَّها فَضَّلَتِ السُّمَّ على إفشاءِ سرٍّ أرادَتْ "صور" ألاَّ يُباحَ بِهِ.

أليسار سيِّدَةُ المُستعمَراتِ والأخلاق

شَعَرَ "موتين" بِقُربِ نِهايَتِه، وساوَرَهُ خَوفٌ على مملَكَةِ صُوْرَ الَّتي أصبَحَتْ في عَهدِه حاضِرَةً لا مَثيلَ لَها.
أعطى مَدينَتَهُ المَكانَةَ، والقُدرَةَ مِن عافيَتِه، ورَشيحِ جَبينِه.
لَم يَرَ "موتين" في وَلَدِه "بيغمليون"، مؤهِّلاتٍ تَجعَلُهُ مُتَمَكِّنًا مِن إدارَةِ شؤونِ البِلادِ، والشَّيل "بصورَ" إلى العَظَمَةِ.

صورُ غَيرُ آمِنَة، هَكَذا دَلَّت الحالَةُ...
قُوَّةٌ مِن الأفواجِ الحَربيَّة، تَندَفِعُ مِن دونِ وعي معَ الأشوريِّينَ مِن ضِفافِ الفُراتِ، باسِطَةً نُفوذَها على الأمكِنَةِ الواسِعَةِ، والبِلادِ المُجاوِرَةِ، حَتَّى بَلَغَتْ شاطئَ البَحرِ المُتَوَسِّطِ الشَّرقيّ، تَتَوَعَّدُ وَتَتَهَدَّدُ، فارِضَةً ما كانَت تَراهُ مُناسِباً لَها على الحَواضِرِ الفينيقيَّة.
يفرضُ الواقِعُ على أهلِ صورَ، أن يؤمِّنوا لهم مستَعمراتٍ بعيدةً في صقلّية وكورسيكا ومالطة وجُزُرِ الباليارِ والشَّواطئ الأفريقيَّة، حتَّى يَلجأوا إليها إذا مورِسَت عَليهِم الحُروبُ مِنَ الأشوريّينَ.

هل يواجِهُ "بيغمليون" هذه الصّعاب؟
هل يقومُ بِردِّ الحُروب؟
الأسئِلةُ كثيرةٌ، والجَوابُ لا يَتَغَيَّرُ. لا، لن يقوى على ذَلكَ.

التفَتَ "موتين" إلى ابنَتِه "أليسار" الواقِفَةِ أمامَهُ بقامَتِها المَديدَة، الهيفاء، وطَلَبَ إليها أن تُلازِمَ أخاها في حَلِّ مشكلاتِ البِلادِ، وأن تُوَظِّفَ ذَكاءَها في خِدمَةِ البِلادِ.

انتفَضَ الحاضِرونَ في مَجلِسِ الأعيانِ، وراقَ لَهُم طَلَبُ الوالِدِ إلى ابنَتِه، وَصَرَخوا بِصَوتٍ واحِدٍ. بَلى! بَلى!

اقتَرَعَ أعيانُ المَجلِسِ مؤيِّدينَ طلب "موتين" مِن دونِ تَرَدُّدٍ.

وبَعدَ الآراءِ الإيجابيَّة، والاجتِماعاتِ المُتَكَرِّرَة، ثبَّتَ مَجلِسُ الأعيانِ أليسار بعدَ موتِ والِدِها على العَرشِ إلى جانِبِ شقيقها "بيغمليون".

لم ترقْ للفَتى المَغرور بيغمليون هذه التَّرتيبات، فرأى في ذلكَ مسًّا بِكَرامَتِه، وتَطاوُلاً على شَرعِيَّةٍ فسَّرَها كَما يشاءُ، وللتوِّ أرسَلَ رِجالَهُ بقيادَةِ قائدٍ يُدعى "سينوس"، لإثارَةِ الشَّعبِ على أليسار.

نَظَّمَ "سينوس" مُظاهَرَةً من التَّقليديِّينَ الّذين يُحَبِّذون النُّظُمَ القَديمَةَ، تَحتَ شِعارِ: "صور ترفض أُنثى على عَرشِها".

بعدَ أخذٍ وَرَدٍّ، قَرَّرَ الأعيانُ ورجالهم أن يَقِفوا إلى جانِبِ أليسار، ونَشِبَت بينَ الأطرافِ المُتَنازعةِ معاركُ قاسيةٌ انْتهتْ باندِحارِ "بيغمليون".

ابنةُ "موتين" رَفَضَت الانتقام من أخيها، وَطَلَبت إليهِ مُجَدَّداً أن يَقِفَ إلى جانِبِها، ولَكَم أكَّدَت حبَّها لهُ، وأنَّ العَرشَ لَهُما...

لم يُقابِل "بيغمليون" بادِرَةَ أختِهِ إلاّ بِتَدبيرِ المؤامَراتِ، والعَمَلِ على الإطاحةِ بِها، وبُعدها عنِ الحُكمِ.

كيفَ تَتَخَلَّصُ أليسارُ وتَتّقي الدّسائِس.
لا شَكَّ في أنَّها تَتّقي ذلك، بالانصرافِ إلى الاهتِمامِ بالأعمالِ المُجدِيَةِ النَّافِعَةِ، وقد يَكونُ ذلكَ بِمُساعَدَةِ خالِها "زيكار بعل" رئيسِ الكَهَنَةِ، أحد الأدباء الكِبار، وهوَ صاحِبُ ثَروةٍ ضَخمة.
خدمة "زيكار بعل" لأليسار تمَثَّلتْ بالمالِ الوفير...
شَعرَ بيغمليون انَّهُ أصبحَ في حَرَجٍ. فتَظاهَرَ بالرُّضوخِ على مضَضٍ، على أنَّهُ يُضمِرُ الشَّرَّ، ويُخَطِّطُ للجَريمَةِ.

اغتيلَ زيكار بالقُربِ من قَصرِهِ.
أُصيبَت أليسار بَعدَ اغتيال زيكار بصَدمةٍ عنيفة؛ وتزدادُ الصَّدمةُ والتَّشاؤم في ظِلِّ أوضاعٍ تتفاقَمُ فيها دَسائِسُ شقيقِها ومؤامَراتِه.
لا شَكّ في أنَّ أنصارَها يكثُرونَ يوماً بَعدَ يومٍ، وأنّهم مُتفانونَ في سبيلِها. إن وَقَعَتِ الحَربُ فهي مضمونة لها ولا جِدال، ولكن على جثثِ الضَّحايا الكثيرة.

فكّرَت طويلاً، وانصرفَتْ إلى نفسِها لمُدَّةِ أسبوعٍ، وفي بدايَةِ الأسبوعِ الثَّاني، فاجأتِ النَّاسَ باعتِزالِ السِّياسَةِ، والانعكافِ في مَجلِسِ الأعيانِ، ثُمَّ في قَصرِها. وعلى الرُّغمِ مِن كُلِّ ذَلِكَ، بقيَ استبدادُ وتشبُّثُ بيغمليون على أشُدِّه...

إزاءَ هذا الواقِعِ المريرِ، قَرَّرَ أنصارُ أليسار، وهُم من أشرافِ صور، أن يُغادِروا مع سيِّدتِهم، فيبنوا مُستَعمَرةً لهم بثروةِ زيكار. لَعَلَّهُ الحَلّ الّذي يُرضي سيّدةَ الأخلاقِ.

وفي صيف ٨١٦ ق.م. انتقَلَتْ أليسار مع مؤيِّديها، على متنِ سُفُنٍ من صور إلى أفريقيا، حيثُ شَيَّدَت مدينَةَ قَرطاجة، ورَبَطَتِ الشَّواطئ الأفريقيَّة ببعضِها.

جاءَ في سِياقِ بعضِ أقوالِ المؤرِّخين، إنَّ أليسار هَرَبَت.
وقيلَ: إنَّ بعدَ هَربِها أُطلِقَ عليها اسم "ديدون". ولم يكن القصد الهرب من المسؤوليَّاتِ المُلقاة على عاتِقِها، وإنَّما الغايَةُ الأساسيَّةُ إنشاءُ مستَعمَراتٍ جديدة، وإنقاذُ حضارةِ صور من الضَّغطِ الأشوريّ.
ها هيَ في جَزيرَةِ قُبرُصَ، تُحيطُ بِها القَوافِلُ، بِحُضورِ كِبارِ القَومِ، وبِخاصَةٍ كبيرُ الكَهَنَةِ "يونون"، أمَّا الجَماهيرُ المُحتَشِدَةُ، فقد قَدِمَتْ تُرَحِّبُ بالمَلكَةِ العظيمةِ، وسيِّدَةِ الأخلاقِ، طالِبينَ أن يَكونوا بِصُفوفِ مُحبِّيها.
رحَّبَت أليسارُ بالأقوامِ كُلِّهِم، وتابَعَتِ المَسيرَةَ معَ مُرافقيها والشَّعب، حتَّى ألقَتْ مَراسيها في خلجانٍ واقِعَةٍ في شِبهِ جزيرَةِ تونسَ، المشرفةِ، عَلى الحوضينِ، الشَّرقيّ والغربيّ من البَحرِ الأبيضِ المُتوسِّط.

قبل نُزولِ أليسار إلى الشّاطئ، تَعالَتْ أهازيجُ البَشَرِ، مُرَحِّبينَ بالسُّفُنِ الفينيقيَّةِ الَّتي ما حَمَلَتْ في زَمانِها إلاّ الخيرَ والغِنى. وهكذا بدأتِ المُدُنُ تَرتَفِعُ بالهَياكِلِ والقُصورِ.

ما كانَ من الملكِ "يرباس" سيِّدِ البَربَرِ في تِلكَ الأصقاعِ، عندَما رأى أليسار، وهيَ تشرفُ بنَفسِها على بناءِ المَرافئ والقِلاعِ، إلاّ أن يَعتَرِفَ بقوَّتِها وَعَظَمَتِها، وعلى الفَورِ دَنا منها مُقِرًّا بوجودِها ملكَةً شَرعيَّةً...

قالَت المَلِكَةُ أليسار:
– يتراءى لي أنَّ "يرباس" يريدُ أن يَعرِفَ أكثَر مَن نحنُ.
أرسَلَت عدَداً من رِجالِها، يبسطون حقيقَةَ وجودِها في تِلكَ المَناطِقِ.
بعدَ لِقائِهِم يرباس والفعاليَّات كافَّةً، قالوا للملكَة:
– أيَّتُها العَظيمَةُ، إنَّ يرباسَ هذا، يُريدُكِ زَوجاً لَهُ، وإن قَبِلتِ، يُمَلِّكُكِ على جَيشِهِ وشَعبِهِ وكُلِّ ممتلَكاتِهِ، وإذا رَفَضتِ سيَشنُّ حرباً مُدَمِّرَةً لا تُبقي ولا تذر.

وَجَمَتْ أَليسار أمامَ هذا التَّهديدِ، وغابَتْ في تفكيرٍ عميقٍ راسِمَةً قُبالَتَها الحضارَةَ والثَّقافَةَ وقِيَمَ بِلادها. ثُمَّ تراءتْ لها مَعالِمُ الخرابِ، وأكداس الضَّحايا، ثُمَّ قالَتْ:
– فليُمهِلني "يرباس" خمسةَ أشهُرٍ وأنا لَهُ.
فكانَ لَها ما أرادَتْ.

في هذهِ الأثناءِ تَمكَّنتْ أليسار من بِناءِ قرطاجةَ، وكلّ ما أرادَتْ بِناءهُ بنشاطٍ قَلَّ نَظيرُهُ. وبعدَ انقِضاءِ المُهلَةِ حَضَرَ "يرباس" على رأسِ جيشٍ كبيرٍ، ودَخَلَ حَرَمَ الحاضِرَةِ الجَديدَةِ ليَقتَرِنَ بالمَلِكَةِ الملهمة.
طلبتْ ابنةُ "موتين"، وهيَ من هيَ في الأخلاقِ والشِّيَمِ، أن تُقَدِّمَ الصَّلاةَ إلى عَظيمٍ كانت تَراهُ في قَلبِها، وَمَشَتْ إلى المَحرقَةِ، فوَقفَتْ وسطَ نيرانِها تلتَهِبُها الأحطابُ، لتُبقيَ شَرَفَ بِلادِها كما عرفَتهُ الأممُ.
لقد ذُهِلَ "يرباس" أمامَ هذا المَشهَدِ الأخلاقيّ، وعَظَمَةِ النَّفسِ، وللتَّو اعتَلى جوادهُ، وغابَ مع من حضَرَ.

بلى! إنّهُ النُّبلُ.

لقد أَنقَذَتْ أليسارُ مدينَتَها، وأهلَها، وأنصارَها، وبَقيَت وفيَّةً لحضارَتِها وتَقاليدِ شَعبِها العَريقِ.

سانتا ابنةُ القائد بلتاوُس

الهواجِسُ أكلتْ من نومِها وراحتِها في تلكَ اللّيلة.
سانتا الَّتي أجملُ من صباحٍ ربيعيّ.
نهضتْ قبلَ أضواءِ الفجرِ، وصياحِ الدّيكِ، تلبَسُ ثوبًا أرجوانيًّا من صنعِ الصّيادنةِ وأميراتِ البَحرِ اللُّبناني.

قبلَ أن تخرجَ سانتا، نادَت امرأةً، تقولُ إنَّها بمثابَةِ أُمِّها.
– أطلُبُ مساعَدَتكِ اليومَ يا "ناردا".
– كيف؟
– أرجو أنْ تُرافقيني إلى مجلسِ الشّيوخِ. فهذا كُلُّ ما يهمُّني في هذه الظُّروف.
– حاضرة يا حُلوتي. ولكن لماذا؟
– نحنُ أبناء هذا الشَّاطئ لن نسكتَ عن ظُلمٍ، ولا عن ضيمٍ. ومن يعلِّمُ الحرفَ للشّعوبِ، ويفكُّ عُقَدَ الألسنِ، بإمكانِهِ أن يُحرِّكَ سياسةَ العالم.

ناردا وسانتا في طريقِهما إلى مجلسِ الشّيوخِ.
لقد وصَلا.
ناردا تعودُ من حيثُ أتَتْ، وسانتا أصبحَتْ في عهدةِ الحرسِ.

لقد دخَلَتْ برأسٍ مرفوعٍ، وقامةٍ مديدة، وهي تقولُ: للمرأةِ رأيٌ في بلادِنا، ولا جِدال، وفي تطلّعاتِها حقائقُ لا تُدحَض، وهي أمُّ العباقِرَةِ، في الدُّنيا.

سمِعَها رئيسُ المجلس. وعلى الفور نادَى أحدَ الجُنودِ، ليُدخِلَ المرأة الّتي في الخارِج.

سانتا في المجلِسِ أمامَ رئيسِهِ.

– أنا سانتا يا سيّدي، ابنة القائد بلتاوس.

حدّقَ بِها قَليلاً، ووقفَ، ثُمَّ سلَّمَ عَلَيها، وفي عينَيهِ دمعةٌ.

– اجلسي يا ابنة أكبر قائد. قالَ.

جلَسَتْ قُبالَتَهُ، وهي تنظُرُ إليهِ، كيف يبكي، وكيف يمسحُ دموعَهُ وحزنه.

– ما بكَ يا سيّدي. قُلْ ما بكَ يا رئيسُ مجلِسِ شيوخِنا.

أجابَها بصوتٍ تسيطرُ عليه الحسرةُ. وردَّدَ: بلتاوس، بلتاوس.

قادتِ الفضوليّةُ والحشريّةُ سانتا، لتَعرِفَ قيمة والدها، فهل هو أكبرُ من قائدٍ عسكَريّ، فسألَتْ رئيس المجلس، عمّن يكون والدها.

– كانَ عمرُكِ يا ابنتي أربعَةَ أشهرٍ يومَ قضى والدُكِ بلتاوس. هل تعلمين ذلك؟

– بلى! يا سيّدي. وأعرفُ أيضًا بأنَّ والدي قُتِلَ غدرًا. فألحّت عليه لتعرفَ من هو والدها في أهله ووطنه.

وبينا كانت سانتا تجيــلُ ببصرها في القاعَةِ الكبيرةِ، حيثُ كانَ يجلسُ

كبار القومِ، رأت تمثالاً ضخمًا تشبّثَ بنظرها وداخلها، وَصَرَختْ من دون وعيٍ، رائعٌ هذا التّمثال.

– وأكثر من رائع، قال رئيس مجلس الشّيوخ. إنَّهُ تمثالُ والدِكِ بلتاوس. وسكتَ طويلاً.

السّكوتُ ساد الموقف من الاثنين، سانتا تلتفتُ صوبَ التّمثال، وتجهشُ بالبُكاءِ، ورئيسُ مجلسِ الشُّيوخِ، يتذَكَّرُ كيفَ ضُرِبَ بسهمٍ مسمومٍ، وكيفَ لفظَ أنفاسَهُ الأخيرة على يمينه.

تابع رئيسُ المجلس:

– والدكِ كانَ متعدّد المَواهِب، فهو مهندسٌ عسكريٌّ، يرسمُ البِناء، والخطط العسكريّة، ومعلّمُ السّياسة لقوّادِنا، وعظمائنا. بلتاوس، قَرْمُ السّياسة الصّيدونيّة بشهادةِ كلّ الشّيوخ، أمّا الأمرُ فهو سهلٌ عليكِ أن تكوني السّياسيّة الأولى في بلادِنا كما أقرأ في عينيكِ، وقدّكِ المشيق.

أطرقَتْ وراحَتْ تُفكِّر بأمِّها الَّتي لم تقل كلمةً واحدةً في هذا الشّأن، ولكن كلّ ما سمعتهُ من جدِّها عن والدِها، أنَّهُ الرَّجلُ الحاسم في أمورِهِ، ولم يتوانَ عن قضيَّة تتعلَّقُ بمهمَّاتِهِ، وفي الوقتِ ذاتِهِ، تذكّرَتْ أنَّها قرأتْ في مخطوطةٍ له عبارة لفتتها آنذاك: "الأَعداءُ يجب أن يكونوا دمًى بين أيدينا".

لم يبقَ إلاّها في منزِلِها الشّبيه بالقصر مع مربّيتِها.

والدها القائد، قضى مشبعًا بالأخلاق والنُّبل.

أمّا والدتُها فقد قَضَتْ مقهورةً على زوجِها، وابنِها البكر.

سانتا قررتْ ونفّذتْ.

ستلعبُ دورَ والدها، ولا بُدّ أن تكونَ في مجلسِ الشُّيوخِ. هل سانتا المرأة الأُولى الَّتي ستدخُلُ إلى مجلسٍ يرأسُهُ رجلٌ؟

سانتا في مجلسِ الشُّيوخِ...

تحمل في عمقِها، الذّكاء، والجُرأة، والسّياسة. كان اللاّفِتُ أنَّها لا تلبَسُ إلاّ الثّيابَ الَّتي تحملُ ألوانَ لبنانَ، وصنع بنات صيدون وصور. صبيحَةَ يَومٍ ربيعيّ، خرجَتْ من منزلِها، لتحضرَ جلسة في النّدوة، في هذا الوقتِ اغتنمَتْ مربيّتها، وهي على ما يَبدو ذكيّة في القَولِ والكَلامِ وقالت فيها:

أنت نحتُ الجمالِ.
تلبسينَ الحريرَ فيزدانُ بكِ.
والوردُ يفرحُ بقامتكِ
وخصور السّنابل صنوكِ
يا الَّتي أحبّتها صيدون
ورافقها الضّوءُ على قِمَمِ حرمون.

ابتسمَتْ سانتا، واتّجهتْ صوبَها لتُقَبِّلَها وقد ودّعتها بحرارة، وإذا بلغتِ البابَ العريض، ركضت ناردا كأنَّها صبيّةٌ لم تبلغ العشرين، ورصّعت شعرها بوردةٍ حمراء، معلنةً بذلكَ يومَ الحُبِّ الَّذي دَرَجَ من جيلٍ إلى جيلٍ، وتجدّدَ على يدِ قدّيسٍ ما همّهُ في دنياه إلاّ نشر الحبّ بين البشر.

وَصلَتْ سانتا بملفّاتها قبلَ أن يَصِلَ رئيسُ مجلسِ الشُّيوخِ والأعضاءِ.
وهي على مقعدِها الَّذي أُعِدَّ لَها، سَمِعَتْ صهيلَ جَوادٍ، وإذا بالكبيريم على الرّتاج.
حيّاها باحترام، وقال:
– نحنُ سنأخُذ بكلِّ الآراءِ يا سانتا، لأنّكِ رائدة السّؤالِ والجوابِ.
أجابَتْ:
– نحن بخدمةِ بِلادِنا يا سيّدي.

انعقدَتِ النّدوةُ باكرًا بإشارةٍ من رئيسِ المجلسِ، وأعطى الكَلامَ لسانتا.
بدأ نقاشٌ تناوَلَ مخصّصاتِ الفرقِ العسكريَّةِ، البريّة والبحريّة، وقد ارتأت العظيمة كما سمّاها الجميعُ بأن تُضاعِفَ الاعتِمادات، والتّدريبات لردِّ أيّ عدوان على البِلاد.

طال النّقاشُ في غير جدوى.
بعضُ الشُّيوخِ يريدون وفرةَ المالِ في الخزينة، وسانتا تتمنّى أن يَقوى الجَيش، ليبقى درع الوطن.
كما أنَّها شرّعَتْ قانونًا للضّرائِبِ، لا يؤثّرُ على وضعِ النَّاسِ والعُمَّالِ.
رُفِعَتِ الجَلسةُ وتجدّدت جلسات، وفي كلّ مرّة، سانتا في وضعٍ سليمٍ، ورؤيا مستقبليّة.

لم تمضِ فترة طويلة، حتَّى دقَّتِ الحَربُ طُبولَها على الحُدودِ.
تذكَّرَ الجميعُ سانتا، وملفّاتها المليئة بالقوانين الَّتي لم يُنفّذ منها إلاّ القليل، القليل.

في جلسةٍ حاسمةٍ، طلبَتْ إلى الجميعِ أن يَقبلوا بآرائِها، لأنَّ البِلادَ على حدِّ السّيفِ، والمدنُ بخطر، والقضيّة برأيِها أهمّ من بِناء قصر، وزيارة دولة.
المطلوب تدريب جيشٍ قويٍّ على جناحِ السُّرعةِ، وفتح صناديق ملأى بالذَّهَبِ والأموال.

ضجّتِ القاعة، وعلا الهتاف.

بعد مرورِ سنةٍ واحدة، أصبحَ جيشُ الصّيدونيّين يلقي الرّعب في قلوبِ الآخرين، وتجلَّتْ قوّته في أكثر من انتصارٍ على الأعداء. وفي اللّحظاتِ الحاسمة كانت النّسوة تلقي بالذّهبِ على أرجلِ العَسكَر، وترشّ بياناتٍ مفادُها، كُلّ ترابة لنا أثمن من ذهبِ العالم.
وبعد وجودٍ سانتا في ندوةِ الشّيوخِ، أصبحتِ البلادُ في عافيةٍ اقتصاديّةٍ وسياسيّةٍ.
توحّدَتِ الممالك، وبخاصةٍ صور، وصيدون، ووُضِعَ المستقبل تحتَ شعار "العمل من أجل الوطن".
وفي كلّ مرّة كانت تحضُرُ سانتا بين الجموع، يُهتَفُ بحياتِها، وحياةِ الصَّيادنة واقترحَ بعضُهُم أن تكونَ رئيسة للمجالسِ النَّافذة.
تقدَّمَ أحدهُم، وهو مَن هو، في بلادِه، بطلبِ يدِها، فرفضَتْ بتهذيبِ الفتاةِ الذّكيّة، مفضّلةً خدمةَ لُبنان، ومدنه على الزّواج.

فَنُّ مُلاعَبةِ السَّيف

غلب على أَمرِ الممالِكِ الفينيقيَّة، وخَسِرَت قسمًا من مُستَعمَراتِها، وكانت آخِرُها قُبرص، الَّتي وَقَعَتْ بِمَن فيها تَحتَ رحمةِ البابِليِّينَ.

قالَ قائد القُوَّاتِ البَريَّةِ الفينيقي، "محاريب":
ممالِكُنا شَمَخَةُ رأسٍ في ظِلِّ مليكِنا "ممنو بالس".
مُدُننا محطَّات لحضارَةِ الإنسانِ.
"بيبلوس"، "صيدون" و "صور" سيِّدَة البِحارِ.
كتائبُنا وَحدَها عملتِ العَجَب ولمَّا تَزَل، من النَّاقورة، حتَّى "قرطاجنة" مروراً بـــ "رأس شمرة".
أمَّا أن نُغدَر وتؤخَذ منَّا عنوةً قُبرص؟ ما همّ.
العارُ، كلُّ العارِ في الجامعةِ البابِليَّةِ.
أونَسيَت بابل أنَّ أساطيلنا كانت تَعمل لِحسابِها في شَتَّى الميادينِ؟
فيا شَبابَ الشَّاطئ الفينيقي: إنَّ مُدنكُم تتأكَلّها النَّار لاستِردادِ أجمل جزيرةٍ في المُتَوسِّطِ. يا شَبابنا، سيوفكُم تَعبت في أغمادِها، نحن من عَلَّمَ فَنَّ مُلاعَبَة السَّيفِ.
يا شَبابَ بِلادي، سيوفُنا صَفحَة كرامَةٍ.
"صور" غَداً وفاؤها...

لِتَعلَمِ الدُّوَلُ المُجاورَةُ، أننا ما تَعَوَّدنا نصب العَراقيلِ إلاّ بعدَ الإنذارِ... التَّاريخ يَشهَد.

أتراها تعمدُ إلى عمل حربي؟

الانتصارات القَديمة كان لها وقعها في نُفوسِ القُوَّادِ الكِبار، "كالاسكَندَر" و"نتراليس"، وكان لَها الحافِزُ لِعُنفُوانِ فينيقية وإرادةِ البَقاء.

القَرار النِّهائي، خوض الحَربِ...

الاستيلاء على مواقِعِ الأعداءِ، والهُجوم سيكون بريًّا وبحريًّا.

امتَشَقَ الشَّبابُ الأبطالُ سيوفهم، وأعَدّوا المراكِبَ، وقرَّروا سرًّا ساعَةَ اللِّقاء. فإذا ساعةُ الصِّفرِ كانت في الخامِسِ عَشَر من آذار، حيثُ ارتَفَعَتِ السُّيوفُ الفينيقيَّةُ على أرضِ "فلسطين"، لتردّ على غدر وثأر، غير هيَّابةٍ بقوَّةِ "البابليين" العسكريَّة، وبمَن كان بحوزَتِهم للمُساندَة.

رفعتِ البيارِق تتحدّى أجوازَ الفَضاءِ، وانكَبَّ المُختَصُّونَ من جديد لِرَسمِ خرائِط هجوميَّة ودِفاعيَّة برسمِ التَّنفيذ.

على الأثرِ، اضطرَّ القَيِّمونَ في الجامِعَةِ البابليَّة، لِفَتحِ الملَفَّاتِ الدِّبلوماسيَّة، والحَديث عن حوارٍ من أجلِ هدنةٍ طويلة...

عَمَلُ السَّيفِ الفينيقي، أذهَلَ الدول والقِيادات والجَماعات، ممَّا أرغَمَ قائداً جريحاً، من كِبارِ قُوَّادِ الأعداء، على القول: "إنَّ فينيقية لن تُغتَصَب. فهيَ، إلى جانبِ ما أبدَعَتهُ، في حياتِها العمليَّةِ والصِّناعيَّة، لَها أيضاً فَنُّ مُلاعَبَةِ السَّيف".

ألهدنةُ قائمَةٌ والجُيوشُ في أماكِنِها.
فتيانُ الشَّاطئ يُشَكِّلونَ عُشرَ عدد جنودِ بابل...

بعد انقِضاءِ سنةٍ على حِصارِ حامية تابِعَةٍ للجبهةِ البابِليَّة، توجَّهَ قائد جديد، آنذاك، يُدعى "أنتوبعل" إلى المُواطنين، يبُثُّ فيهم النَّخوةَ والأمل.
ظَنَّ الأعداء، أنَّ خُطابَ الرَّجُلِ العَسكَريّ الجديد، يُمَهِّد لِتَعبئة عامَّة تجرّ لِمَعركةٍ أُخرى، الأمر الَّذي دَعا الجامِعَةَ البابِليَّة للانعِقادِ والمُعالَجَةِ الفَوريَّة. وتراءى في الأُفُقِ طيفُ ذلكَ القائدِ الجَريحِ القائِل:" إنَّ فينيقيا لن تُغتَصَب، فهي إلى جانبِ ما أبدَعَتهُ في حَياتِها العَمَليَّة والصِّناعيَّة، لها أيضاً فَنّ ملاعَبَةِ السَّيف".
في وقت كانت الفِرَقُ المُوَزَّعَةُ تتنَمَّرُ، وُزِّعَ مَنشورٌ، يحمِلُ أمراً بإنشاءِ خمسة وعشرين مركباً، تَحمِلُ أسماءَ خمسة وعشرين شهيداً، فقدوا في المَعرَكَةِ معَ البابليين، على أرضِ فلسطين، وجاء في سياقِ الكَلامِ ما مَعناهُ: إنَّ بُطولاتِكُم سيحفَلُ بِها التَّاريخُ. ثقوا أنَّ مدننا، المُنتشِرة على المُتَوَسِّط، لا تقهر، ولا تعاند.
مدننا بِكُم تَفخَر، يا من علَّمتُم فَنَّ مُلاعَبَةِ السَّيف.
ما شاعَ وتَرَدَّدَ ملأَ الأسماع.

كان بينَ الجُموعِ المارَّةِ امرأة، عرَّجَت على ثكنة المَدرَسَةِ الحَربيَّة حيثُ يُقيمُ القائدُ "أنتوبَعل"، وبِلَهفةِ المُشتاقِ، طَلَبَت من نودي به مليكاً بعد "ممنوبالس".

وإذا دَخَلَت، دفعت بولدٍ في الخامسة عشرة من عُمرِه، وقالَت:
– سيِّدي. ابني "سرداس" قضى في مَعركَةِ الكَرامَةِ، وهذا "فيرداس" ولدي الباقي، أُقَدِّمُهُ خُبزاً لتَحيا "صور" إذا دَعَتِ الحاجة، وهَتَفَت: عاشَتْ "فينيقية".
ابنُ الخامسة عشرة بقيَ في مركزِ القِيادَةِ، ليكونَ الجُنديّ الأوَّل في فرقةٍ أنشئت باسم ضابطٍ قضى فوقَ ساحَةِ الشَّرَفِ، يديرُها "ديفزا" الَّذي فصل من الحامية البَحريَّةِ خصِّيصاً لهذهِ الغايَةِ...

بعدَ تِلك المَعرَكَةِ التَّاريخيَّةِ، شاعتِ التَّسمِياتُ في أفواجِ الجُيوشِ وصارت مألوفة في البِلادِ المُستَقِلَّة.
وصارَ السَّيفُ رمزَ الضَّابِطِ المُتَخَرِّجِ من المَدرسةِ الحَربيَّةِ...

وهكذا عادت "قُبرص" و"أرواد" و "غزَّة" و"عسقَلان" لحاكِميَّةِ "صور" حاملة محبَّة فينيقية، وهدوءاً سادَ جميع المَمالِكِ.

قالَ المَلك، وهو على أرضِ الجَزيرةِ الخَضراء، بعدَ أن أقَلَّتهُ سفينَة كبيرة، شَقَّت عباب اليَمّ:
– سجّلوا: فينيقية استَرَدَّت المجد المفقود.

بيروت أمّ الشَّرائِع

سُئِلَ مرَّةً الإله "إيل" عن مَحَبَّتِه "لبيروت"، أجاب:
– حَسبُها الإنسانَةُ القَريبَةُ منِّي.
اقتَصَرَ جوابهُ على معنًى مبتور. رُبَّما عن قَصد...

فسَّرَ "سنحريبوس" القولَ بِكَثيرٍ من النَّفاذ والحِكمةِ. أكَّدَ أنَّ "بيروت" هي ابنةُ إيل إله الزَّمن.
من هنا الزَّعمُ أنَّ المَدينَةَ لها شأنها في التَّاريخِ القديمِ والحَديثِ. وطارَتْ شُهرَةُ اثنتينِ من اللّواتي بَرَزنَ آنذاك، "أثينة" الَّتي اختَصَّت بالحِكمةِ، و"بيروتُ" في الحُقوقِ...
سواءً صَحَّتِ الأسطورةُ أو لَم تَصحّ، تبقى بيروتُ صوتاً لِلحَقِّ، وشَريعة مُثلى، كما المُدُنُ المَشهورةُ بالذّوقِ والجَمالِ والقُدوةِ.

جاءَ في وثائِقَ تاريخيَّة، أنَّ "دينبال" و"رعسمس" و"فورتا" و"بيروت"، تأثَّروا كثيراً بواضعي قوانينِ الإنسانيَّةِ والتَّشريعِ. ولَمَّا أضافَتْ "بيروت" على مجموعَةِ القَوانينِ بَند حقِّ المرأةِ في الإرثِ، خلعَ عَليها لَقَب "أمِّ الشَّرائِعِ".
"بيروت" عُرِفَتْ بِهذا اللَّقَب، وذاعَ لها صيتٌ في عالَمِ الحُقوقِ طبَّقَ الآفاقِ.

ووفاء لها، قامَتِ المَدينَةُ باسمِها، كما أقاموا مَدرَسَةً للشَّرعِ تحت اسم معهدِ الحقوقِ، كانت مهمَّةُ مُعَلِّميهِ منوطَةً بِحَسمِ أيِّ خِلافٍ يَحصلُ في العالَمِ.

كان لِحَفيدَةِ "أثينة" صبيَّةٌ جميلةٌ، تُدعى "أجمل الأجمل"، قرَّرَتْ، بملءِ إرادَتِها، أن تَخرُجَ عَن خَطِّ الحِكمةِ الَّتي طالما اشتَهَرَتْ بها بِلادُها، لتلتَحِقَ بِمَعهَدٍ للشَّرعِ.

قالت "أجمل الأجمل" لِعالِمٍ من بِلادِها، يَعمَلُ في خِدمةِ أمِّها "برتنسيا":

– أيُّ مَعهَدٍ؟

وقبل أن تُكمِلَ السُّؤال، أجابَ:

– بيروت. معهَدُ بيروت، يا صَغيرَتي.

بيروت أمّ الشَّرائِع، وَزَّعَتْ مجموعَةَ القَوانين إلى مَعاهِدِ الأرضِ.

يا صَغيرَتي، طالِبُ بيروت أستاذ، وأستاذُها عَلاَّمَة...

أمجادُ بيروتَ يستَحيلُ أن تُصارعها أمجادٌ في أيِّ جزءٍ من الكونِ.

خُذي ما شئتِ عن مَجموعَة بيروت القانونيَّةِ.

تَعَلَّمي الحَقَّ، في خيرِ مَعهَدٍ لِخَيرِ شَعبٍ. وإذا دَعَتِ الحاجةُ، دافِعي عن إرثِ بيروت... بيروتَ المَدينَةِ.

"أجمل الأجمل" في بيروتَ، عاصِمَةِ لُبنان.

فتاةُ "أثينة" نسيَت مَوطنها.

حال شقيقها "فيدلاس" لم يَكُن بأحسَنَ من حالِها. نسيَ قضيَّة أتى من أجلِها، هي، إقناعُ شقيقَتِهِ بالعَودَةِ إلى بِلادها.

قيلَ: "أجمل الأجمل" نبَّهَتِ المُلوك، والقيِّمينَ على شؤونِ الرَّعيَّة، أنَّ الغُرباءَ سيُشَكِّلونَ عبئًا ثَقيلاً على المَدينَة، إذا ما بَقيَت مُباحَةً بالشَّكلِ المَعهود. وأطرَقَتْ تتذَكَّرُ قولَ ذلكَ العالِمِ العامِلِ في خِدمةِ والِدَتها، وهو يَطلُبُ إليها الدِّفاعَ عَنِ المَدينَة.

تناقَلَ التَّاريخُ أقوالَ الصَّبيَّة.

وإذا بأحَدِ رِجالِ السِّياسَة، قُبَيلَ الاستِقلالِ اللُّبنانيِّ، يَخطُبُ في الجَماهيرِ قائلاً:

– لِنأخُذ فتاةَ "أثينا" مَثَلاً لَنا.

وإذا بيروت تَتَحَوَّلُ مَحَجَّةً لكُلِّ ذي حاجة، كما أنَّ مرفأها، أضحى محَطَّةً للمَراكِبِ العالَميَّة. وَوَرَدَ قَولٌ في سياقِ كَلامِ أحَدِ المُشَرِّعينَ، يُظَنُّ أنَّهُ "سنخونيَتُن" ما مَعناهُ: لبنانُ كانَ وسيَبقى حاضِرَةً للعِلمِ.

وغير مرَّة، قصدَ أباطرَةٌ من كلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ، المَدينَةَ الفَتيَّةَ: "كملفانوس" و"انستالوس" وغيرهُما. وكثُرَتِ المَعاهِدُ والقُصورُ والمَسارِحُ والهَياكِلُ الَّتي ما زالَتْ آثارُها ظاهِرَةً للعيان.

كُلَّما مَرَّ أمير أو حاكِم على هذه البِلادِ، يُحاوِلُ أن يَستَرجِعَ لبيروتَ دورَها الحَضاريّ، ومَجدَها الضَّائِعَ، ولكن خيرُ مَن فَكَّرَ وصَمَّمَ، بعد الأمير المَعنيّ، الرَّئيسُ الجامعيّ...

ثمَّةَ إثباتاتٌ وأروماتٌ منسيَّةٌ، وَقَعَتْ في يَدٍ عظيمٍ من لُبنان، تعودُ بقدميَّتها إلى القُرونِ الأولى للميلاد، تؤكِّد بناءَ مدرسةِ بيروت الحُقوقيَّة، حيثُ اطَّرَدَت شهرة في منتَصَفِ القَرنين الخامِسِ

والسَّادِسِ، وكانَ من طُلاّبِها "طوغو" و"ساويروس" و"جوليا" بنت "أغسطس" وغيرهُم.
اكتُشِفتْ مخطوطةٌ في مَدرَسةِ القسطنطينيَّة، غيرُ مؤرَّخَة، تُثبِتُ أنَّ جميعَ المُشتَغِلينَ في الشَّرعِ والقانونِ والحَقِّ، أخَذوا عن بيروتَ أساسَ التَّشريعِ.
وما قَصيدَةُ الشَّاعِرِ الإغريقيِّ إلاّ برهانٌ قاطِعٌ:

"ستَبقى بيروت أمّ الدُّنيا.
"يخلّدُ فيها الحَقُّ.
"ويعيشُ العَدلُ كما السَّلامُ...

وها "موتن" الكنعانيّ يطلُبُ، قبلَ أن يلفظَ أنفاسَهُ الأخيرة، أن يطلــقَ على حفيدَتِهِ اسم "بيروت" بدلاً من "نيانا" تيمُّناً بالاسمِ العظيمِ.

الحُبُّ الجامِع

التَقاها في صيدونَ وهي في طريقِها إلى الصّرفند.
صبيّة ولا أروع.
– ما اسمُك يا صبيّة؟ قالَ الضّيف.
– ولِمَ السُّؤالُ يا هذا؟ أجابَت بثِقَةٍ وكبرياء.

أخرسَتِ الكلمات في فيه، وتابعتْ طريقَها، وسطَ بساتينِ اللّيمونِ، والموزِ، ولَم تسمح لهُ بأن يقولَ لَها أنا أحبُّكِ.
السّائلُ اسمُهُ تحوتموس، والَّتي حمّلته النظراتِ القاسية اسمُها ديدون الصَّغيرة.
لقد أسرته بالقامةِ الرّائعةِ، والعينَينِ السَّوداوينِ، والجرأة.

حَمَلَ تحوتموس في قلبِهِ حُبًّا لم يعرفهُ من قبل أبدًا.
وفي اللَّحظةِ الَّتي وَصَلَ بِها إلى ديارِهِ الفرعونيّةِ طرحَ قضيَّة حبِّهِ على والِده ووالدته، وراح يصف جَمال ديدون الصّغيرة اللُّبنانيَّة.
الزّيارات إلى الشّواطئ اللُّبنانيّة صعبة بعضَ الشَّيء، والكلفةُ باهِظَةٌ جدًّا، إضافة إلى خلافات سياسيّة حَصَلَتْ بينَ المُلوكِ.
حاوَلَ بكلِّ إمكاناتِهِ أن يُقنِعَ أسرتَه بالانتِقالِ إلى صيدون، وليكُن هناكَ مصالحةٌ في أمِّ المدائنِ اللُّبنانيّة.

نهرتهُ العائلةُ الَّتي قالَ والدُه باسمِها، وهو من هوَ في البِلادِ الفرعونيّةِ:

– هل تُريدُنا أن نَسكُنَ في مملكة نُضمِرُ لَها العَداء؟

– لِماذا تقول هكذا، يا أبي. ومنذُ متى نحنُ أعداء أرضٍ لها على الدُّنيا؟ ألا تَعرِف أنَّ شَعبينا عرفا المجدَ والحضارَةَ معًا؟ إنَّهُ لمن الخطإ يا والِدي أن نفكِّرَ بهكذا تفكير، وأنتَ اليَومَ من أبرزِ رِجالِ بلادِنا هُنا.

كانَ هذا الوجيهُ العظيمُ يصغي إلى ولدِه، والغَضَبُ بادٍ على كلّ ملامحِه، ويردُّ بعصبيَّة:

– أنا قُلتُ لا، لن تَجمعنا الأحوالُ والظُّروفُ يا تحوتموس، السِّياسَةُ لا تَجمعُنا ولا الاقتِصادُ يَجمَعُنا في وقت صيدون تستأثِرُ بنصفِ ذهبِ العالم.

قولُ "نبوكادس" لم يأبه له ولدُه تحوتموس، وإن كان أكبر وجهاءِ وعظماءِ البِلادِ الفرعونيّة، وللتوِّ، بعد يومين غادرَ تحوتموس أرضَ الأَجدادِ وتوجَّهَ صوبَ صيدون؛ وحلّ ضيفًا في منزل "دامو".

بعدَ تذلّلٍ واستعطافٍ طلب إلى دامو أن يجمعه بديدون الصّغيرة.

في أيّ حال، تحوتموس شابٌّ وسيمُ الطَّلعَةِ، مفتولُ السَّاعِدِ، قويُّ البنية، شخصيَّتُهُ قويَّة جِدًّا.

رأى دامو ديدون الصّغيرة وهي تجمعُ ليمونًا أعظَمُ لَونًا من الشَّمسِ. فحدَّثَها بموضوعِ تحوتموس ضيفهُ.

وبينا يُكَلِّمُها، حضر تحوتموس، كيف؟ اللهُ أعلم.

قالت ديدون الصّغيرة:

– مَن؟ هذا أنت يا تحوتموس.

– هذا أنا يا ديدون.

– تناديني باسمي، كأنّ صداقة تجمع بيننا، وأنتُم أبناء الأرضِ الفرعونيّة أعداء لَنا. في أيِّ حالٍ لا بُدَّ أن يَصحَبكَ ابن بلدي دامو إلى منزلنا.

تحوتموس رفيق دامو. وإذا هُما في دارة "بلتسي" والد ديدون الصّغيرة.

– من هذا يا دامو؟ قال بلتسي.

– إنَّهُ ضيفٌ من بلاد فرعون، قد جاءنا مُسَلِّمًا ومُسالِمًا، ولعَلَّهُ أحدُ مؤرِّخي الفَراعِنَةِ الكِبار على رغم صغر سنّه.

أحضرتْ ديدون ضيافة البيتِ الَّتي لم يَرَ مثلَها كَرمٌ في الدُّنيا، على أنَّها من عادَةِ اللُّبنانيينَ في مطلقِ الأحوالِ.

بعدَ إكرامِ الضَّيفِ، قالتْ ديدون الصّغيرة:

– لا نَصيبَ لَكَ في منزل بلتسي، لا أنا، ولا شقيقَتي نانو.

قال دامو، وهو يبتسِمُ:

– لنترك الأمرَ لوالِدِكِ يا صغيرتنا ديدون.

– الأمرُ لي، لأنَّ بِلادَنا منبتُ الحُريَّةِ الموضوعيَّة. وإذا رضي والِدي، فأنا لا أرضى إلاّ بشروطٍ.

قالَ دامو وبلتسي لتحوتموس:
– عُدْ إلى بِلادِك أَيُّها السَّيِّدُ، وبعد، سننظُرُ بالمَوضوعِ.
ردَّ تحوتموس بتهذيبٍ كليٍّ، وبأخلاقٍ عاليَةٍ:
– كيفَ أذهَبُ، وأنا أَصبَحتُ لُبنانيًّا؟

خَنَقَتْ ديدون الصّغيرة صوتَها، وانصرفَتْ. ومن ثَمَّ راحَت تفكّرُ بكلامِهِ. وردّدت كثيرًا: الحبُّ، الحبُّ، الحبُّ.

وبعدَ لحظاتٍ يسيراتٍ، عادَت وقالَت، لتحوتموس:
– هل تحبُّ صيدونَ يا هذا؟
أجابَ والدُّموعُ تُغرِقُ خيالها، وقوامها:
– صيدونُ، بلادي، صيدونُ تاريخي، إنَّني سأكونُ صيدونيًّا لأُدافِعَ عَنها بحجَّتي القاطِعة، وفهمي للتَّاريخِ، والبُطولَةِ.
– إسمَعْ يا تحوتموس. صيدون سيّدَةُ البِحارِ. فهيَ قادِرَةٌ أن تُدافِعَ عن نفسِها بقوَّةِ أبطالِها الذّاتيّينَ. ومن يجرؤ أن يُحارِبَها؟ قالت هذا وقهقهت.

انتفضَ الشَّابّ وقال:
– أنتِ لا تُحِبّينَها أكثر منّي، وهذِهِ قَناعَتي، وهزَّ كتفَيها كأَنَّهُ يهزُّ الحُبَّ في داخِلِها.
– إسمَع يا هذا، قالتْ: الزَّواجُ والحُبُّ أكبَرُ منّي ومنكَ، فأنتَ من بِلادٍ وأنا من بلاد. أمّا أنا فلن أخرجَ مرّةً عن إرادَةِ مجلِسِ الشُّيوخِ عِندَنا.

ذهبَ تحوتموس من حيثُ أتى، ثُمَّ لحقَ بهِ دامو.

مضى عامٌ واحدٌ على فراق ديدون الصّغيرة، وتحوتموس.
في هذا الظَّرف، بدأت تتحرّكُ المدن القريبة من الحدودِ اللُّبنانيّة، والمراكب الآتية من جهة البحر.
المؤشِّراتُ تَقولُ بأنَّ صيدونَ ستُهاجَمُ للمَرَّةِ الرَّابعَةِ.

عرفَ حُكمًا تحوتموس الَّذي أَخَذَ هويَّتَهُ اللُّبنانيّة برغبَةٍ ملحاحٍ، بما يُحاكُ من دَسائسَ على لُبنان.
طلبَ إلى مجلسِ الشُّيوخِ أن يعرضَ رأيًا في أوضاعِ لُبنانَ الحرِجة، وهو العليمُ أيضًا على ما يَبدو بالخططِ الحَربيَّةِ.
تحوتموس في خِضَمِّ المَعركَةِ. وكأنّي بهِ نسيَ الَّتي أتى من أجلِها لينصَرِفَ لِلدِّفاعِ عن أرضِ لُبنانَ.
في هذا الوقتِ بدأتْ تُحبُّهُ ديدون، لأنَّها عرفَتْ عن قربٍ أنَّهُ مُخلِصٌ وصادِقٌ. فأرسَلَتْ بِطَلَبِهِ.
أجابَها برِسالَةٍ تَحملُ العَطفَ كلَّ العَطف، والحُبَّ كُلَّ الحُبِّ، وأقسَمَ بعينيها السّوداوينِ، وقامتها وشرفها، أنَّهُ سيَعودُ إلَيها فورَ انتِصارِ لُبنانَ على جيرانِهِ الحاقِدينَ.
انتهَت كُلُّ الحُروبِ، وكانت صيدونُ المنتصِرة.
من الأمورِ الَّتي تَداولَها مجلِسُ الشُّيوخِ، أمرَ حُبِّ ديدون الصّغيرة، وأمرَ تحوتموس، وتوحَّدَت آراءُ المجلِسِ بمواطنيَّةِ تحوتموس، وحبّه من ديدون، إذا هي أرادَت ذلكَ.

اشترطتْ ديدون قبل الزّواجِ، أن يأتي ملوكُ فرعون، إلى صيدون، وتقولُ الدِّراساتُ التَّاريخيَّةُ إنَّ مصالحةً تَمَّتْ بينَ الفَراعِنةِ وصيدون سببها زواجُ ديدون الصّغيرة، من تحوتموس.

حيرام وَجهٌ لُبنانيّ

شَهِدَ القَرنُ الثَّالِثَ عشرَ ق.م. سَيطَرَةً على المُدُنِ الفينيقيَّةِ.

اقتَسَمَ السَّيطَرَةَ شَعبانِ قَويَّانِ إبَّانَ تِلكَ الفَترَةِ، هُما: المصريُّونَ والحِثِّيُّونَ. على أنَّ الفينيقيِّينَ تَشَبَّثوا باستِقلالِهِم وَحَضارَتِهِم وقِيَمِهِم الَّتي ميَّزَتهُم عَن بَقيَّةِ الأُمَمِ، وَجَعَلَتْ مِنهُم شَعباً رائِداً لا لانتِهاء.

في تِلكَ الأثناء، أقبَلَت جُيوشٌ مِنَ البَحرِ، اضطَرَّ الحِثِّيُّونَ أن يَنكَفِئوا إلى أصقاعٍ مُتَراميَةٍ في الشَّرقِ، وتَراجَعَ المِصريُّونَ إلى وادي النِّيلِ، أمَّا الفِلَسطِنِيُّونَ وهُم مِنَ الشُّعوبِ الَّتي عرفتِ البحرَ، وعاشَت على شَواطِئِهِ، وبِخاصَّةٍ في جنوبي جَبَلِ الكَرمل، حَيثُ دُعِيَتِ البِلادُ باسمِهِم: فلسطين.

هَكَذا استَعادَت مُمتَلكاتُنا وَمساحاتُنا وَحواضِرُنا استِقلالَها، وعُدنا إلى تَنظيمِنا في الدَّاخِلِ، وتَرتيبِ أُمورِنا وشُؤونِنا كافَّةً بإرادَةٍ صَلبَةٍ، وَفَرَحٍ كَبيرٍ.

دَمَّرَتِ المَعارِكُ قسماً مُهِمًّا من مُدُننا.

والغَزَواتُ المُتَتالِيَةُ جَعَلَتِ المُدُنَ جَريحَةً، وأوقَفَتْ نموَّها، وَنُهوضَها.

غيرَ أنَّ مَدينَةَ صورَ، وهِيَ قِبلَةُ الجُزُرِ، وَقَفت في وَجهِ التَّقهقُرِ، والسَّيطَرةِ الغَريبةِ. وقُبَيلَ بُزوغِ فَجرِ الاستِقلالِ في الألفِ الأوَّلِ ق.م.

حَوَّلَ الفينيقيُّونَ أبصارَهُم نَحوَ حاضِرَتِهِم الَّتي امتازَتْ بالجَمالِ والثَّروَةِ ولاسيَّما الفِكريَّة.

لَقَد نعمَت صورُ بالخَيرِ والأسفارِ والأعمالِ الكُبرى في عَصرِ مُلوكٍ شَهِدَ لَهُم العالَمُ بقُدرَتِهِم وكَفاءتِهِم، وسَجَّلتْ لِمجاذيفِهِم أحواضُ البَحرِ الأبيَضِ المُتَوَسِّطِ، والبَحرِ الأحمرِ والمُحيطِ الأطلَسيِّ، شَهادَةَ تَفَوُّقٍ في المَجالاتِ الحَضارِيَّةِ.

أشهَرُ هؤلاءِ المُلوكِ حيرام الأوَّل، الَّذي امتَدَّ حكمُهُ من عام ٩٨٠ إلى عام ٩٣٦ ق.م. فَكانَ الخَيرُ والغِنى والمَجدُ على مَدِّ أربعٍ وأربعينَ سَنَةً.

هُناكَ شُعوبٌ كانَت تُعيدُ استِقلالَها مُكتَفِيَةً بِذَلِكَ.

بيدَ أنَّ حيرام رَسَّخَ السِّيادَةَ الوَطنِيَّةَ، ورَمَّمَ الهَياكِلَ القَديمَةَ الَّتي تَهَدَّمتْ أيَّامَ النُّفوذ الأجنَبي.

أرادَ حيرام أن يَجمَعَ السِّيادَةَ والدِّين. شيَّد هَياكِلَ جَديدة لِيَرتَفِعَ الشُّكرُ إلى مكَوِّنٍ، بَشَّرَ بِهِ عَباقِرَةُ فينيقيا. كَما عَجَّ هَيكَلُ ملقارت القائمِ على جزيرةٍ صَغيرةٍ يفصلُها مَضيقٌ عَن جَزيرَةٍ كَبيرَةٍ آهِلَةٍ بالسُّكَّانِ.

كَتَبَ المؤرِّخونَ أسطورة مَفادُها، أنَّ ثعباناً وقفَ على صَخرة من صُخور صورَ، وراحَ يَضربُها بِذَنَبِهِ حتَّى انشَقَّتْ، وقَد تابَعَ الثُّعبانُ عَمَلَهُ لِيُبعِدها إلى وسط البَحرِ، ولَمَّا قَدِرَ بَدأَ يجذفُها بذنبه، وقَبلَ تَحقيقِ غايَتِهِ انقَضَّ عَليهِ ملقارت بقوَّةِ النّسرِ الكاسِرِ وَقَتَلَهُ فَرَسَتِ الصَّخرةُ مَكانَها.

تَقولُ الأُسطورةُ أنَّ جَماعَةَ ملقارت أشادوا لَهُ هَيكَلاً ضَخماً على تِلكَ الجَزيرَةِ، ولَكِنَّ العَواصِفَ والتَّياراتِ البَحريَّة، كانَت تُعيقُ وُصولَ الزَّائِرينَ إلَيه.
ردمَ حيرام المَضيقَ، وَعَمَّرَ هُناكَ مدينَةَ "تير" وبالقُربِ منها أشادَ مدينَةً أُخرى أطلَقَ عَليها اسم " بالتير". ثُمَّ أنشأَ مَرفأينِ: المرفأ المصريّ، والمَرفأ الصَّيدونيّ، وذَلِكَ لِتَسهيلِ مرورِ المَراكِبِ الآتِيَةِ منَ الجَنوبِ والشَّمالِ.

حيرامُ كانَ من رِجالِ المَعلوماتِيَّةِ المُتَكامِلَةِ.
كانَ يَعرِفُ كَيفَ يُمَوِّلُ مَشاريعَهُ العَظيمَةَ الَّتي عَجِزَ العالَمُ عن تَفسيرِها. لَقَد أقامَ في عَرضِ البِلادِ وطولِها صِناعاتِ النَّسيجِ، والزُّجاجِ، والمَعادِنِ، وتَبادُلِ التِّجارَةِ البَحريَّة، والبَرِّيَّةِ عَبرَ البَحارِ، وعبر سوريا والعِراقِ والأناضول والجَزيرَةِ العَرَبيَّةِ، وعرفَ كَيفَ يزيدُ مِن المَوارِدِ واستِمرارِها.
ثُمَّ وَجد حيرام مواردَ ثابتة في تَحالُفِهِ مع الملك سليمان. فَفي هذا التَّحالُفِ أغرَقَ أسواقَ صورَ وأورَشَليمَ بالذَّهَبِ والفِضَّةِ وكُلِّ أنواعِ المَعادِنِ الثَّمينَةِ.

أُشيرَ إلى أنَّ العِبرانيِّينَ بَلَغوا مرحلة مرموقة في عَهدِ المَلك داود.
هؤلاء الرُّعاة تَقَدَّموا كَثيراً، فَقَد أصبَحوا مِن كِبارِ التُّجَّارِ والصِّناعِيِّينَ، وباتوا مِن أهلِ المالِ والغِنى والتَّرَفِ، على أنَّ أسواقَ أورشَليم فُتِحَتْ بِكامِلِها لِلبَضائِعِ الفينيقيَّةِ.

وهكذا استأنَفَ الملك سلَيمان العَلاقات من البابِ العَريضِ مع صديقِ والِده، وتَوَثَّقَت المَوَدَّةُ، فَرَبَطَت بينَ الاثنَينِ الكَبيرَينِ صداقة مُمَيَّزة، ومُساجلاتٌ فِكريَّةٌ، كانَ الغالِبُ فيها دائِماً حيرام، على رغمِ حِكمَةِ سلَيمان الَّتي شاعَت إبَّانَ ذَلِكَ التَّاريخِ.

عِندَما شاءَ المَلِكُ سلَيمانُ، أن يَبنيَ هيكَلاً لِلرَّبِّ، تَنفيذاً لِوَصيَّةِ أبيهِ من خَشَبِ أرزِ لُبنان، لَجَأَ إلى حيرام، قال:
"والآن فَمُرْ بأن يُقطَعَ لي أَرزٌ مِن لُبنانَ، ورِجالي مع رِجالِكَ، وأجرَةَ رِجالِكَ أؤدِّيها إلَيكَ بِحَسَبِ جَميعِ ما تَرسُم، لأنَّكَ تَعلَمُ أن ليسَ فينا مَن يَعرفُ بِقَطعِ الخَشَبِ مثل الصَّيدونيّينَ".

رَدَّ حيرام:
"قَد فَهِمتُ ما أرسَلتَ بِهِ إلَيَّ، وأنا أُتِمُّ كُلَّ مرضاتِكَ، في خَشَبِ الأرزِ، وخَشَبِ السَّروِ. ورِجالي يُنزِلونَ ذلِكَ من لُبنانَ إلى البَحرِ، فاجعَلهُ أطوافاً في البَحرِ إلى المَوضِعِ الَّذي تُسَمِّيهِ لي، وأطرَحُهُ هُناكَ فتأخذه، وأنتَ تُتِمُّ مرضاتي بإعطائِكَ طَعاماً لِبَيتي" (سفر الملوك).
حمل جَوابُ حيرام دقّةً وإيجابيَّةً.
خَشَبُ الأرزِ لِسلَيمانَ، ثَمَنُهُ قمحٌ لِلفينيقيِّينَ.
تَمَّ الاتِّفاقُ، وبَنى سُلَيمانُ قَصراً لَهُ دَعاهُ "غابَةُ لُبنان"، فَقيلَ إنَّ طولَهُ مئة ذراع وعرضهُ لا يَقِلُّ عَن خمسينَ ذِراعاً، وعمقهُ في ثَلاثينَ، وكذلِكَ أعمِدتهُ وسَقفهُ ورواقهُ من خَشَبِ أرزِ لبنان.

ربيَ في صورَ فَتًى يُدعى حيرام، حيرام هَذا، غير حيرام المَلك، وَهُوَ

ابنُ أرملَة، امتازَ بِصُنعِ وزَخرَفَةِ النُّحاسِ، فعهِدَ إلَيهِ المَلكُ سُلَيمان أن يَهتَمَّ بتَزيينِ القَصرِ ويَملأهُ بِمَصنوعاتِهِ النُّحاسِيَّةِ، وقَد أشارَ إلى ذلِكَ سفر المُلوكِ.

أُعجِبَ سُلَيمانُ بالإتقانِ والفَخامَةِ.
فأرادَ أن يَزيدَ من إكرامِ حيرامِ الملك، فأهداهُ قُرًى ومُدُنًا كَثيرةً في الجَليلِ، ولَكنَّها فقيرة جِدًّا. قَبِلَ ملك صور الهَدِيَّة، وفي أقَلّ مِن خَمسِ سَنَواتٍ، حَوَّلَها إلى جَنائِنَ غَنَّاءَ، وبيوتٍ عامِرَةٍ، وسَمَّاها في ما بَعدُ أرضَ العَطاء، ومِنها مَن قال سَمَّاها أرضَ "كابول".

وتَشاءُ القُدرَةُ أن يَجعلَ حيرام من مملَكَتِهِ رائِعَةً بينَ المَمالِكِ.
أمرَ بإنشاءِ سُفُنٍ لِتَنطَلِقَ إلى البِلادِ البَعيدَةِ، تَحمِلُ الصِّناعَةَ الفينيقيَّة، وتأتي بِصناعاتٍ يَحتاجُها لُبنان. وجاءَ في سفرِ المُلوكِ أنَّ المَلاَّحينَ اللُّبنانيِّينَ كانَ لَهُم خِدْماتٌ كَثيرَةٌ على شواطئ العالَمِ كافَّةً، ومَشاريعُ ضَخمَةٌ في الدَّاخِلِ، ومُحالَفاتٌ تِجاريَّةٌ في الخارِجِ. هَذا ما حقَّقهُ حيرام، وما حقّقهُ أيضاً أَنْ آثر المَصلَحةَ الوطَنيَّةَ على كُلِّ شيءٍ في حَياتِهِ وأوصَى بِها.

هنيبعل سيّدُ الألب

نَشَرتْ قَرطاجةُ حَضارتَها ونفوذَها ومُنتَجاتِها بإرادَةٍ تَكتَنِفُها المَحَبَّةُ والسَّخاءُ على أجزاءٍ كثيرَةٍ تابعَةٍ للبحرِ الأبيضِ المُتَوَسِّط.

كانت الشُّعوبُ الأُوروبيَّةُ والأفريقيَّةُ، ترحِّبُ بالقرطاجيِّينَ لأنَّهم من أهلِ النِّظامِ والتَّشريعِ والكَرَمِ، وقَد عُرِفَ عَنهُم أنَّهُم من دُعاةِ السَّلامِ.
قَلَّما انتضتْ قرطاجَةُ سَيفاً لقِتالٍ، على أنَّها تُدافِعُ عن كرامَتِها، إذا تَعرَّضَتْ لإهانَةٍ، شأنها بذَلِكَ شأن سكّانِ صورَ وصَيدا وبيروتَ وجُبَيل، وأبناء الشَّاطئ اللّبناني.

في بِدايَةِ القَرنِ الثَّالثِ ق.م. ظَهَرتْ على الشَّواطئ الإيطاليَّةِ جيوشٌ لروما، ألقَتْ بثِقلِها وعديدِها وغَيظِها ضدّ الأسطولِ القَرطاجيّ الَّذي بَدا يتهادى في مضيق مسّينا.
أرادَتْ روما أن تَفرِضَ لَها حضارةً بالقُوَّةِ، وَسَعَتْ بكُلِّ ما أُوتيت مِن قدرةٍ لتكون سيّدة البِحار، فأنشأتْ أسطولاً مَهمَّته إبعادَ الغُرباءِ وطردهُم من جزيرةِ صقلّية تمهيداً لِضَربِ قرطاجة وإزالتِها مِن الوجودِ.
عرفتْ قرطاجة أنّ الطّرقَ السّليمة لا تجدي نَفعاً.
التمستِ القُــوَّةَ والإرادةَ الصّلبة من قادتِها العسكريّين، ومن مفكّريها،

وبِخاصَّةٍ من هملقار برقة ثمّ صهره أزروبعل وهنيبعل الَّذي امتازَ بعَبقَرِيَّةٍ لا مَثيلَ لَها في ذلِكَ التَّاريخ.

هنيبعل ابن هملقار.

وُلِدَ سنة ٢٤٦ ق.م. في وقتٍ كان والدهُ يُقاتِل الرّومان بِصراوَة.

عادَ هملقار إلى قرطاجةَ، وقد ملأته الغبطةُ والفَرحُ بطِفلِهِ الَّذي بَدَتْ عليهِ علائِمُ النَّجابَة، ونُشيرُ بأنَّهُ بلغَ السَّادِسَةَ من عمرِهِ.

هل يقفُ هنيبعل بوجهِ المَطامِعِ الرُّومانيَّة؟ هذا ما كانَ يحلمُ به أبوهُ.

أرسلَهُ إلى الصَّحراءِ ليصلبَ عودُه، ويتَمَرَّسَ بالفُروسيَّة على أيدي البربر. وعندما بلغَ العاشِرة، لمسَ هملقار الحَماس الكَبير في ولده للحرب، وحبّه لأهلِه وقرطاجة. وفي الثانية عشرة، طلبَ الطِّفلُ المُعجزةُ إلى والِدِهِ أن يرافقهُ في المَعارِك.

بعد تَفكيرِ هملقار بالأمورِ كافّة، ولاسيَّما بولدِه، تراءت لَهُ المَعاركُ الشَّديدةُ من جديد.

طلبَ إلى وَلَدِهِ أن يقسمَ اليمينَ بأن يكونَ وفيًّا لأبناءِ جِلدَتِهِ، وألاّ يكونَ صديقًا للرّومان أبَدًا.

قسمُه الرَّهيبُ جعلَه أن يُفكِّرَ أكثر.

ثمّ رافقَ والدَه إلى إسبانيا، حيثُ شاهدَ بأُمِّ العَينِ، أشدّ المَعارِك وأعنَفَها، وقَد أكَّدَ له ذلكَ أحدُ القِياديّينَ الكِبار.

هنيبعل في الثَّامنةَ عشرةَ.

لاحظَ الجَميعُ من مسؤولينَ، وبحّارةٍ، وعسكريّين، أنَّ عبقريَّةَ هنيبَعل

العسكريَّة تتوضَّحُ وتستَبينُ بِشكلٍ مُذهِلٍ، والحلمُ الَّذي كانَ يُراوِدُهُ هملقار أصبَحَ حقيقَةً ماثِلَةً.

أوَتسألُ عن القَدرِ الغاشِم؟

شاءَ القَدَرُ هذا أن يفاجئَ هملقار بجيشٍ خائنٍ في الفيافي الإسبانيَّة ومعه إبَّان ذلكَ ولداهُ هنيبعل وأزروبعل. قُتِلَ القائدُ الكبيرُ إثرَ خيانةٍ مدبَّرَةٍ على ما يُظَنُّ، بعدَ أن أمن نجاةَ ولديه.

فاجعةُ الوالدِ جعلتْ قوّةَ هنيبعل تتضاعَفُ في نفسِه.

الفتى الَّذي حَمَلَ طوال حياتِه حبَّ والده، قد أقسَمَ اليَمين مضاعفًا أن يبقى على حبِّه لهُ، مضيفًا الإعجابَ به، والحقدَ على أولئكَ الَّذينَ غدروا بِهِ. فهم الأعداء ولا جِدال.

عرفنا مهمّة هملقار الشَّاقة.

كانَ عليهِ أن ينظّمَ مستَعمرات لقرطاجة في إسبانيا.

أَسنَدَ الجيش لصهرِه أزروبعل، الَّذي قدرَ بسرعةٍ أن يُقيمَ مُعاهَدَةَ الإيبر مع روما سنة ٢٢١ ق.م. أمّنتْ هذهِ المُعاهَدةُ سيطرة القَرطاجيّينَ على المَناطِقِ الإسبانيَّة الواقِعة جنوبي نهر الإيبر.

لعلّها لحظة خِيانة أيضاً. فقد قُتِلَ أزروبعل بعدَ ثلاثَةِ أشهرٍ.

اجتمعَ مجلِسُ الشُّيوخِ ليَختار خَلَفًا له. فوقعَ اختِيارُ الجَيشِ على هنيبَعل ليكونَ قائِداً عامًّا علَيهِ، وهوَ في السَّابِعَةِ والعِشرينَ من عمرِهِ.

هنيبعل.

صلبُ الشَّكيمَةِ، قــويُّ السَّاعِدَينِ والتَّقاسيمِ، يَتَسَلَّحُ بنظرٍ حادٍّ ثاقِــب،

وسرعَةِ خاطِرٍ قوامُها الدّقّة والمُلاحَظة الصَّائبة، أمَّا الإحساسُ فمُرهَفٌ. يغضَبُ لتَحدٍّ ويتأثَّرُ لفاجِعَةٍ.

المهمَّةُ كبيرة.

ثمَّةَ مناطِقُ واسِعةٌ وراءَ جِبالِ غوادراما، ومُعظَمُها داخِلٌ في نِطاقِ النُّفوذِ القَرطاجيّ، وهذه المساحات أشارتْ إليها معاهدة الإيبر، على أنَّها تأبى الخُضوع لقَرطاجة، وتهدّد بهجماتٍ قاسية.

إزاءَ هذا الواقِع اضطرَّ القائدُ الشَّابُ أن يَتَّجِه صوبَ الشَّمال.

وبعدَ معارِكَ جِدّ حسّاسة أظهَرَتْ ذكاءَه وعبقَريَّته في فَنِّ القِتالِ والخططِ العَسكريَّة، أخضَعَ المُدنَ لسلطتِه باستِثناءِ مدينةِ ساغونت الَّتي جابهت هنيبعل باعتِبارِها حليفة لِروما، فحاصَرَها واستَولى علَيها ببساطةٍ غير مُهتَمٍّ بتَهديداتِ الرُّومان ومجالِسِهِم السّياسيّة والاجتِماعيّة وبِخاصَّةٍ مجلسُ الشّيوخ.

توهَّمَت روما أنَّ القَرطاجيّينَ، ولاسيَّما رِجال السّياسة، غير موافِقين على أعمال هنيبعل، فأرسَلَت وفدًا رفيع المُستَوى من مجلِسِ الشُّيوخِ، برئاسة فابيوس بوتيا، وفي جعبتِهِ سؤالٌ واحِدٌ لمجلِسِ الشُّيوخ القرطاجيّ. هل يوافِقُ على أعمالِ هنيبعل؟

إذا كانَ الجَوابُ نَعم، لا بُدَّ من حربٍ بَينَ الفريقَين، وإذا كانَ لا، فَعلى مجلِسِ الشُّيوخِ القَرطاجيّ تسليم الشَّاب العَبقَريّ إلى روما ليُصارَ إلى مُحاكمتِه.

إذًا، عرضَ الوَفدُ الرُّومانيّ مطالبَهُ.

كانَ من الطَّبيعيّ أن يَهتَزَّ ويضطَربَ مجلس الشّيوخ، بعد مناقَشاتٍ حادّة، وطويلة.

فَكَّرَ القَرطاجيّونَ طويلاً، لأنَّهُم يَخشونَ بادئ بدءٍ من الحَربِ الثَّانيَةِ، لأنَّ التَّعَبَ أضناهُم وهَزَّ اقتصادَهُم.

في أيِّ حالٍ، اجتَمَعَ المَجلِسُ، وأهلُ التَّشريعِ، ونُصب أَعينهِم حربٌ مدمّرة، وهُم بينَ أن يستَنكِروا، وأن يُوافِقوا. عيلَ صَبرُ الوَفدِ الرُّوماني، فنهضَ رئيسُهُ، وصَرَخَ في القَومِ قائلاً: "يا أهلَ قرطاجة، أنتُم أمامَ خِيارَينِ، الحرب أو السّلم، فعلَيكُم أن تَختاروا".

فكانَ الرَّدُّ سريعاً أمامَ هذا التَّحَدّي، وأجابوا: "نتمنَّى أن تعرِفوا، من نحنُ، ومن هُم أهلنا، في لبنان، وهنا، وأردَفَ فابيوس بصوتٍ عالٍ: أيُّها النَّاسُ نحنُ بحربٍ مع الرُّومان".

الحربُ واقِعَةٌ لا مَناصَ؛ وفعلاً وقعتِ الحَربُ الفونيقيَّة الثَّانية الَّتي ظَهرتْ فيها عظَمَةُ، وعبقَريَّةُ هنيبعل الجَبَّار.

بدأتِ الخطَطُ الحربيَّةُ علنًا وبالخَفاءِ من الأفرقاء المتنازعين.

قالَ الرّومان: من أينَ يدخل أو يأتي هنيبعل؟ لم تكُن بينَ قرطاجة وروما حدودٌ مشتركة.

لقد ظَنَّ الرّومان، بأنَّ هنيبَعل سيأخذُ البَحرَ وجهةً لَهُ، فيبسطُ جيوشهُ في نقاطٍ معيَّنَةٍ على الشَّاطئ. فما كانَ من الجَيشِ الرُّوماني، إلاّ أن يكونَ حاضِراً لِلدِّفاعِ، عنِ الشّواطئ الإيطاليّة، فنُشِرَتِ الأساطيلُ، والجيوشُ الجَــرَّارة، ومن ثمّ فتح الرّومان جبهةً واسِعَةَ النِّطاقِ على

هنيبعل في إسبانيا نفسها، وقد قصدوا بعضَ المناطِق الإسبانيَّة، يطلبونَ إلَيها أن تخرِّبَ المَواقِع القَرطاجيَّة، فباءَت المُحاولاتُ بالفَشَل، وتضَعضَعَ الأمنُ الرّوماني بعد استنفارِ القُوَّاتِ كُلِّها.

رصَدَ هنيبعل تحَرّكات الأخصام.
فألّفَ جيشاً من مئةِ ألفِ مقاتلٍ، وأعَدَّ سبعينَ فيلاً ليتمَّ مخطّطًا حربيًا.
حلفاء روما في إسبانيا لا يُستَهانُ بِهِم، فجابَهَ هؤلاء الجَيش القرطاجيّ وعرقلوا سيرَهُ في أماكِنَ كثيرةٍ، تجاه هذا الأمرِ عُدِّلَت خريطة هنيبعل، ثمّ قدر أن ينتَصِر على المتمرّدينَ عليهِ وعلى جيشه بعد شهرٍ واحدٍ. وعلى الأثَر أعلنَ لِقوّاده أنَّ شهرَ تأخيرٍ لا يؤثِّرُ على سيرِ العَمليَّاتِ العسكريَّةِ.
اجتازَ هنيبعل جبال البيرينه مارًّا بـــ "غاليه"، وقد أقنعَ الغاليِّين بأنَّهم أحبابهُ، ولا يريدُ شَرًّا بِهِم، فلقيَ تَرحيبًا من قبائلهم، ومحالفةً.
فكانت دهشة الرّومان بعبور هنيبعل وادي الرّون في ثلاثَةِ أيَّام وخمس ساعات.

بعدَ بُلوغِ جِدارِ الألب، تهيّبَ العَسكرُ القِمَمَ الشَّاهِقة، وحاولوا عدمَ المَسيرِ. قيل: إنَّ هنيبعل ابتسم، وجمع الجَيش، وخطب بهم، طالِبًا إلَيهم الصَّبرَ، واصِفًا النَّجاحَ، ومغانمَ إيطاليا، وقد ذكّرَهُم بقوّتهم وشجاعَتهم وانتصاراتِهِم السّابِقة، واضِعًا في قُلوبِهِم الهممَ، وما تنتَظِرُهُ قرطاجة منهُم، والأهلُ في الشَّواطئ اللّبنانيّة. وممَّا قالَهُ أيضًا: "جبال الألـــب عاليَة فقط، وكذلكَ جِبـــال البيرينيه، أمّا شجاعتكم فهي أعلى

بكَثير من تِلكَ الجِبالِ. وهل يصعبُ عليكم اجتياز السَّماء، وأنتُم كلّ القِمَمِ والسَّامقات، فيا أبناءَ فينيقيا، أنتم، أنتُم، فوق كلِّ الصّعوبات".
هذه الخُطبَةُ، بل هذا الكَلام، أثَّرَ كثيرًا بالجَيشِ القَرطاجيّ، وهبَّ لتسلّقِ الجِبالِ تُرافقُهُم قبائل غوليّة، وإسبانيّة، وإفريقيّة.
القائدُ الشَّابُ يجتازُ بفتيانِهِ وفيلتِهِ جبال الألب، على رغم الرّياح الخريفيّة الباردة.

إنَّها مُغامَرَةٌ صعبة ولا جِدال. مغامرةٌ لم يسبِقه إلَيها رجلٌ عسكريّ.
الجُيوشُ والفيلةُ يخضعونَ الرَّواسي الَّتي ملأتها الثُّلوجُ.
تعرّض هنيبعل للعَوامِل الطبيعيّة، والبشريّة، في أعالي الجِبال، وفي أيّ حالٍ تفوّقَ على جميعِ العقباتِ، واجتازَ الألب خِلالَ خمسة عشر يومًا، وتَحقَّقَ المُستَحيل. ومن فوق بدت سهول إيطاليا بمساحاتها الخَضراء، وجمالِها الممتَدّ على رُقَعٍ ولا أروع، كما بدت مَعالمُ التَّعَبِ على الجُنودِ الَّذينَ أبدوا شَجاعَةً قَلَّ نَظيرُها في الوجود.

قالَ هنيبعل لهم والغِبطَةُ تملأ فؤاده.
– أُنظروا أيُّها الأبطالُ هذه المدن العامرة، كلّ هذا ينتظِركُم، يَنتَظِرُ أبطالاً، هيّا، هيّا. فمشى أمامهم والعَزيمةُ ملءُ الأمكِنَةِ والأصقاع.
وهكذا نفخَ في جُنودِهِ العزم، فانحَدَروا إلى السُّهولِ بقُلوبٍ كبيرة.
لدى وصولِهِم إلى نهر البو، التقى العظيمُ هنيبعل بالجَيشِ الرّوماني، وجرت ثلاث معارِك، أحرزَ أبطالُنا فيها انتصاراتٍ رائعة.
أدهشَت خططُه القادةَ الرّومانيين، الأمر الَّذي جعلهم يتجنّبون التقاءَه،

مكتفينَ بمناوشاتٍ جانبيَّةٍ يلهونه بها فقط، لعلّهم يتمكّنون من جمع شتاتِهم وتنظيم دفاعِهم، لأنَّ روما أصبحت مهدّدةً بالسُّقوطِ.
رسم هنيبعل خطّةً سريعةً، ثُمَّ توجَّه نحو الشَّراذِم الرّومانيّة الَّتي تجَمَّعَت في الجنوبِ الشَّرقيّ في إيبوليا، حيثُ تمركز هناكَ لفترةٍ راحةٍ.

انقضى على هذه الحربِ أكثرُ من سنتين.
القرطاجيّونَ يسيطرونَ على الأراضي الإيطاليّة وخصوصًا في الشّمالِ حيثُ الخصبُ والانتاجُ وجمالُ الطّبيعَةِ. تضايقَ الرّومانُ في حالةٍ كهذه، وعزموا على القِتالِ مجدَّدًا، ودخولِ مَعركَةٍ يائِسَةٍ في كانيٍ. فعلاً كانت خاسِرة، استَطاعَ هنيبعل أن يَقضي على مُعظَم الجَيشِ الرُّوماني بسهولةٍ كلّيَّة.
بعدَ هذه الانتِصاراتِ الهائِلةِ، توجَّهَ القائِدُ القَرطاجيّ إلى جزيرة بروتيوم، وهناكَ انتَظَرَ شقيقَهُ أزروبعل من الشَّمال حتّى يتمّ حصار روما نهائيًّا، لكنَّ القَدَرَ الظَّالِمَ ساعدَ فلولاً من الجَيشِ الرُّوماني على قتل أزروبعل وهوَ في طريقِهِ لتَنفيذ الخُطَّة، فتَبَدَّدَ جَيشُ هذا الأخير.
وقيلَ إنَّ الرّومانيّين قطعوا رأسهُ وأرسَلوهُ إلى أخيهِ، فثارَتْ ثائِرَةُ البَطَلِ القَرطاجيّ، على رغمِ اليأسِ الَّذي استَبَدَّ بِهِ.

بقي هنيبعل طويلاً في إيطاليا. في هذا الوقت حاوَلَ الرُّومانُ نقلَ الحَربِ إلى أفريقيا في جوارِ قرطاجة، لعلّه بذلِك يبعد للدّفاعِ عن الأرضِ القَرطاجيَّة. نفّذ الرُّومانُ ما فكّروا بِهِ، وقَد أصابوا نَجاحًا.

عندما رأت قَرطاجة أنَّها بخَطَرٍ، طلبَت إلى قائِدِها الكبير المُساعَدةَ، فاضطَرَّ أن يتركَ معقلَه للذّودِ عن وطنِهِ، قبلَ جمعِ وتنظيمِ جَيشِهِ بُعَيدَ معركة زاما عام ٢٠٢.

في معركة زاما خسرَ هنيبعل ما حقّقهُ من منجزاتٍ، وطلبَ الصّلح، ففرضت روما شُروطًا انتقاميَّة، أقلّها تنازل القَرطاجيّينَ عن إسبانيا، وجزر البحر المُتوسّط، وتسليمِ الأُسطول.

قبلت قرطاجةُ كُلَّ الشّروط، أمَّا هنيبعل فعيّنَ حاكمًا على إدارةِ مدينَتِهِ، ولم تمضِ سَنَوات قليلة حتَّى تركَ الحكم وجاء إلى الشَّرق.

لقد وجد هنيبعل في صُوْرَ وطنه الأمّ الاطمئنان...

في صورَ استَنهَضَ الهِمَم ودَلَّ إلى الخَطَرِ الرُّوماني على بِلاد اليونانِ ومملكة السّلوقيين.

ثُمّ حلّ في أنطاكيا، ونبّهَ إلى المَخاطِرِ ذاتها، لكِنّ الحاكِم اليوناني لَم يَقوَ على السَّماعِ، وتلبيَة النِداءِ، وما فعلَهُ في صور، وأنطاكيا فعلهُ في دولِ آسيا الصُّغرى، وما خافَ إلاّ من خديعةِ ملك بيتانيا لأنَّهُ كانَ بودِّهِ أن يسلِّمهُ إلى الرُّومان لقاءَ صفقَةٍ ماليّة.

اشمأزّ هنيبعل من الكذبِ والمُخاتلة، ودَبَّ اليأسُ في روحِهِ ونفسِهِ، فانتَحَرَ هَربًا من العالَم السّلوقي، واليونانيّ، الَّذي فقد الاحترامَ، والمكانَةَ الأخلاقِيَّةَ والمكرمات، وذلكَ سنة ١٨٣ ق.م.

تركَ هنيبعل أثَرًا كبيرًا في حياةِ القُوَّادِ والمؤرّخينَ. والحَقيقَةُ تُقالُ فإنَّ الرَّجُلَ العظيمَ دافَعَ عن حضارةٍ وشعب.

الأوزاعي حقٌّ وعدل

اصطدمَ الإسلامُ بمصاعبَ كثيرةٍ، حتَّى كادتِ الدّعوةُ تقع بخطرٍ.
استفحلَ أمرُ الشّعوبيّةِ والقوميّات على الأرضِ العربيّة، وكثُرتِ المَذاهبُ الأدبيّةُ والفكريّةُ، وراحت كلُّ قوميّةٍ تتمسّكُ بتقاليدِها وعاداتِها وآدابِها، وتُعلي بأمجادِها وتدافع عن مقوّماتِها.

الآراميّون والفُرسُ واليونانُ والإسبانُ، عملوا بكُلِّ قدراتهم ليجعلوا معتقداتِهم تسودُ الأرضَ، تمهيدًا للقَضاءِ على الدّعوةِ الإسلاميَّةِ.

على رغمِ الخلافاتِ والحربِ الأهليّةِ بينَ الأمويّين والعَبَّاسيّين، وانقسامِ العرب على أنفسِهم، تمكّنَ الخُلفاءُ من قمعِ الثّوراتِ الشعوبيّةِ والحِفاظِ على الدّعوةِ الدّينيّة.

لقد لعبَ الخلفاءُ دورًا كبيرًا لدرءِ المخاطرِ وجمعِ الشّمل، ووضعوا نصبَ أعينِهم العقابَ والثَّوابَ، وركّزوا على التّضحياتِ الجسيمةِ الَّتي دفعها الدّينُ الجَديدُ ليجعل الإنسانَ قريبًا من اللهِ والإصلاحِ والمحبَّةِ، وكانَ من كِبارِ هؤلاءِ الأئمّةِ، الإمام الأوزاعي، اللُّبناني النّبيل الأصيل الَّذي آمن بالإسلامِ حقًّا ودينًا وصَلاحًا.

من هوَ عبد الرّحمن أبو عمرو الأوزاعي؟

وُلِدَ في بعلبكّ سنة ٧٠٧ م. نزَحَتْ أسرتُه من قريةٍ سوريّة لعلّها الأَوزاع القريبة من دمشق. نشأَ عبد الرّحمن يتيمَ الأبِ، ولكن والدته جعلته بعيدًا عنِ اليُتمِ بما وَفَّرَتْ له من راحةٍ، وبحبوحةٍ وعلمٍ على حِسابِ خدمتِها في المَنازِلِ.

أجمَعَ المُؤرّخونَ إلى أنَّ الصَّبيَّ لَفَتَ النَّاسَ بنباهَتِهِ وقُوَّةِ ذاكرتِهِ وهُدوئِهِ ورجاحَةِ عَقلِهِ. وقَد لاحَظَ معلِّموهُ مقدرَتَه على الاستيعابِ وحفظِ الآياتِ القُرآنيَّةِ، وتفسيرِ الحَديثِ، وتشوّقه إلى جمعِ المَعلوماتِ والسَّماعِ إلى أهلِ العلمِ والخبرةِ، والعُلماءِ المشهود لهم آنذاك.

رغبَ بعضُ عُلماءِ عَصرِهِ وبخاصّةٍ الَّذينَ عرفوه عن قُربٍ، أن يساعدوه في السَّفرِ إلى البَصرَةِ ليَدرُسَ على البصَريّ وابن سيرين، فتَمَّ الأمرُ كما يشاء.

أمضى فترةً طويلَةً في البَصرَةِ، وعادَ من هُناك بطاقاتٍ علميَّةٍ هائلةٍ.

العلمُ في البصرةِ كشفَ لَهُ الإيمانَ باللهِ بثَوابتَ مدعّمةٍ من الأديانِ السّماويَّةِ كلّها، وبخاصّةٍ من القُرآن الكَريم الَّذي صرفَ معظَمَ وقتِهِ في قراءته وتحليلِه.

اتَّجه بكلِّ معطيات الإيمان.

سخَّر عقلَهُ، وقلبَهُ، وأحاسيسَهُ إلى الخالقِ الأزليّ السّرمديّ الَّذي خلقَ الدّنيواتِ والحيواتِ، واهتَمَّ بتدبيرِ خَلقِهِ والمخلوقاتِ كافّةً.

عبد الرّحمن أبو عمرو الأوزاعي.

شعر أنَّهُ مكلّفٌ ببشارَةِ اللهِ، وإيضاحِ معنى الخالقِ في البَشَر.

دعوته تعليم الفقه، وإلقاء العِظات.
في هذا المَجالِ رأى بيروت أمّ الشَّرائِع أنَّها ملتقى الأجناسِ البشريَّةِ، وهيَ ربيبَةُ العَولمةِ بضجيجِها الماديّ والعمليّ والتّجاريّ من غير أن يكونَ للتأمّلاتِ الرّوحيَّة شأن يُذكَر. لذلكَ رأى لِزامًا عليهِ أن يخلقَ للرّوحِ مكانًا، وللّه سلطانًا على أبناءِ البشرِ الَّذينَ خلقَهُم على صورتِهِ ومِثالِهِ.

الأوزاعي في بيروت.
ظهرَ إنسانًا غريبًا عن عاداتِ وتَقاليدِ النَّاسِ.
لقد تسامى عن المادّةِ، والتفكيرِ التِّجاريّ، ورسم اللهَ الخالِقَ في القُلوبِ والسَّماءِ مركز الإيمان الأَمثل، أمّا المال فجعله حاجَةً لكنّه دون الإيمان.
مَقَتَ المالَ، ورفض التّداولَ به، وإنَّما تركه رباطًا للتِّجارة بينَ المُدُنِ والأَمصارِ وشراء ما تحتاجه الصّناعة الَّتي في خدمةِ السّكان.
أَعمالُهُ النَّزيهةُ ومعاطاته الأخلاقيّة، جعلت الكلّ ينظرون إليه نظرةَ إكبارٍ واحترام. في هذهِ الأثناءِ أخذ مكانًا له بينَ ميناء الحصن وشاطئ الرّميل في ازدِحامِ الأعمالِ والنّشاطات ومشاغل السّكان في التّجارة، وراحَ يُعلّم ويعظ ويُري صورَةَ اللهِ في كلّ عملٍ، وما زالت حتَّى اليَوم تلكَ الزَّاوية في سوقِ الطَّويلة تُعرفُ بزاويَةِ عبد الرّحمن الأوزاعي.

عرفَ الأوزاعيّ كيفَ يوفّقُ بينَ عبادَةِ اللهِ والأعمالِ.

طَلَبَ إلى النَّاسِ أن يعملوا برضى الرّبّ وفي إطارِ الخُلق والعدل.
ثمّ توجّه إلى الخَلق وقال لهم:

"إنّ الله إذا أرادَ قيامَ شرٍّ فتحَ عليهم الجَدَلَ ومنعهم العملَ".
"المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيرًا وإن المنافق يقول كثيرًا ويعمل قليلاً".
"لا يستَقيمُ الإيمانُ إلّا بالقَول، ولا يَستَقيمُ الإيمانُ والقَولُ إلّا بالعمل".

لقد قاومَ الأوزاعيّ البطالة، وثبّتَ البيروتيّين في أشغالِهم وأعمالِهم التِّجاريّة والصّناعيّة والسّياسيّة على الصّراطِ المُستَقيمِ ووفق ما تقتضيه الإنسانيّةُ والصَّلاحُ القائمُ على المحبَّةِ والعدلِ والحقِّ.
بالعمل الصَّالِحِ المتقن، والأخلاق والعدل نرضي المكوّن القدير، وتُحسب لنا عبادَة يَرضى الله عليها في أيّ حالٍ.

ومن المواعظ الَّتي كان يكتبها ويوزّعها:

"عدلُ ساعةٍ خيرٌ من عِبادَةِ ألف شهر".

وممّا قالَهُ أيضًا:

"إنَّ الإسلامَ ليسَ صلاةً وعبادةً ونجاةً بالنَّفسِ
وإنّما هو عَدالَة في الخلق جميعًا".

علمنا أنَّهُ يشدّدُ على مسرى العدلِ في النَّاسِ، وشرطه أن يطولَ جميعَ الأجناسِ، والمذاهِبِ من دونِ تمييز. ويَومَ سُئِلَ عن مصيرِ الأعمى في أرضِ الرّوم، قالَ:

"احضنوه، وحذارِ أن يُصابَ بأذى".

ثُمَّ أردَفَ الكَلام وقال:

"لا! ولا يُقتلُ جوّاب، ولا راعٍ ولا صاحب صومعة ولا شيخ، ولا طفل، ولا رسول...".

كما أنَّهُ خالَفَ جماعة الفقهِ والاجتهادِ، بأنْ حرّمَ الرّبا على المسلمين في الحروب، والأرض المقدّسة، لأنّه وجدَ في ذلكَ مخالفةً للشّرعِ والعدل والإيمان والإنسانيّة.

في هذا السّياقِ نذكرُ حاكمَ بعلبكّ العبّاسيّ يومَ أرهَقَ اللُّبنانيّين النَّصارى بالضّرائب، فتنادى هؤلاء للثّورة واجتمعوا في المنيطرة برئاسةِ المقدّم الياس، ثُمّ توجّهوا إلى قرى البقاع، فكانَ من النَّتائج أن أسروا عددًا كبيرًا من الأهلينَ وعادوا إلى أماكنِهم. بُعَيدَ هذا العمل كانت ردّةُ الفعلِ قويّة وظالمة عند الأميرِ العَبَّاسي صالح بن علي، وبخاصّةٍ عندما نكَّلَ جيشهُ بالقُرى الجبليَّة كيفما اتّفَق، وهجّر السُّكّان الآمنين.

أرسَلَ الإمامُ الأوزاعيُّ العادلُ أهلاً لَهُ، ثُمَّ أتبعَ ذلكَ صيحتَهُ المشهورة يذكّرُ الأميرَ بالعَدلِ، وقد حذَّرهُ من التَّمادي بغيّه وظُلمِه. وممّا قالَهُ: *"كيف تُؤخذُ عامّة النَّاسِ بذنوب خاصّة حتّى يخرجوا من ديارِهِم وأرزاقِهِم، وجاءَ في القَولِ الشَّريف: وحكم الله تعالى ألاّ تزر وازرة وزر أخرى، وهو أحَقّ ما وقف عنده واقتدى به، وأحقّ الوصايا أن تحفظَ وترعى وصيّة رسولِ اللهِ صَلّى اللهُ عليه وسلّم، قال: من ظَلَمَ معاهدًا وكلّفهُ فوق طاقته، فأنا حجيجه"*.

وكم مرّة نادى الأوزاعيّ بالعدلِ، والعَدلِ الدّائم.

جابَهَ الحكّامَ، وندَّدَ بعملِ العَبَّاسيّين ناعتًا إيَّاهُم بالظّلمِ، ممّا اضطرَّ الأمير عبد الله بن عليّ عمّ الخليفَة السّفاح أن يستدعيه.

لدى وُصولِهِ بينَ الجندِ والسّيوفِ، بادرهُ الأميرُ بلهجةٍ غير مرضيةٍ.

– ما اسمُكَ؟

– عبد الرَّحمن بن عمرو الأوزاعي.

– ما قولُكَ في دماءِ بني أميَّة؟

– إنَّ ثقةً كانتْ تربطُ الجَميعَ في ما بينَهُم.

– ويحَكَ يا هذا، كفَّ يدكَ، لا عهدَ بينَنا.

نظَرَ الأوزاعيُّ إلَيهِ نظرةَ غضبٍ، وقال بثقَةِ المؤمنِ المسلمِ الَّذي لا يريدُ الإسلامَ ظلمًا، وحقدًا:

– دماؤُهم عليكَ حرام أيُّها الأمير.

– ويحَكَ، ولِمَ؟ قال الأميرُ بصوتٍ مرتفع.

أجابَ الأوزاعي، وكأنّهُ يعلّمه درسًا قرآنيًّا:

– أما قالَ الرّسولُ، لا يحلّ دمُ امرئٍ مسلمٍ إلاّ بإحدى ثلاث: سيّب زانٍ، ونفس بنفس، وتارك دينه.

فكّرَ الأميرُ وأطرقَ، ومن ثَمَّ خرجَ الإمامُ يُحاسِبُ ولا يُحاسَبُ، ولم يجرؤ عليهِ أحد.

وقيلَ إنَّ الأمير أرسَلَ إلَيهِ مالاً بغيَةَ استِرضائه.

أخذَ الأوزاعيُّ الأموالَ، وجعلَ الأميرُ ينظرُ بأمِّ العَينِ كيفَ وَزَّعَها على الفُقَراءِ، ولم يُدخِلْ فلسًا واحِدًا إلى بَيتِهِ.

الأوزاعيّ وجهٌ لُبنانيٌّ. كُتِبَ على هذا العبقريّ، أن يجابه الظَّالمين، وأن يُجادِلَ الأئمّةَ من أجلِ الحقِّ، ولكَم جعلهُم أمامَ مسؤوليَّاتِهِم، فخضعوا لِصَوتِ الضَّميرِ. كم خافَ النَّاسُ هذا المُصلح العظيم.
يخشونه لأنَّهُ ما تَكَلَّمَ إلاّ بالحَقِّ، والحَقِّ وحدَهُ.
يومَ ماتَ سنة ٧٧٤، قال الأمير إرسلان اللّخمي، حاكم بيروت، وهو واحدٌ من تلاميذه: رحمةُ الله عليك يا أبا عمرو. فوالله كنتُ أخافُكَ أكثَرَ من الَّذي ولاّني.
هذا المؤمن بربِّهِ كثيرًا، كان يصلِّي والدُّموعُ تعمِّدُ عينَيهِ، والخُشوعُ يملأ كيانه، ويومَ سأله تلاميذه عن نفسه، وعبادته، وخشوعِه. قال: هُناكَ، غضّ البصر، وخفض الجناح، ولين القَلب.
حَلَّ الأوزاعيّ في النَّاسِ، وفي الشَّرقِ، يوم كان الكلُّ بأمسِّ الحاجَةِ إلَيهِ. حَلَّ في بيروتَ مدينَةِ العمَلِ والفكرِ، ليمزّقَ الضَّغائنَ، ويخنقُ الظّلَمَ الكافرَ، ويكبَحُ جماحَ المذهبيّة، ويعلنُ الإسلامَ الصّلاح، والصّوابَ. أحبَّهُ الجَميعُ من دونِ استثناء. ويَومَ أسلَمَ الرُّوحَ إلى خالِقِها، مشتِ المدُنُ وراءهُ بمسلميها، ومسيحيّيها، ويهودِها، في مأتَمٍ مهيبٍ خاشِعٍ.
اللاّفتُ آنذاكَ أنّ سورية ولبنان اعتنقا مبادئه، وتعاليمه، على مدى جيلٍ بكاملِه.

وكلَّما ذكرَ أهلُ المبادئ، والعلمِ، والمساواة، والحقّ، والعدل، لاح لهم وجه الإمام الأوزاعي اللُّبناني العَظيم.

اسكندر ساويروس رجلُ العَدل

عَرَفَ العالَمُ الواسِعُ وَجهًا عظيمًا من لُبنان، لم يعرفْ على مدِّ عمرِهِ غيرَ المَحَبَّة والحريّة والعَدل.
وثقَ بهِ النَّاسُ، ورأوا فيه رجلَ الخَلاصِ، في زمنٍ تحكَّمَ عرشُ الأباطِرَةِ في روما بالمُواطِنينَ، وكثُرَ الظُّلمُ والفَسادُ.
نظامُ الأباطِرَةِ يَخنُقُ الأنفاسَ، والسَّيفُ جاهِزٌ فوق الرّؤوسِ.
كانَ يَصدُرُ الحُكمُ باسمِ الأُمَّةِ الرُّومانيَّةِ.

الرّوماني وَحدهُ على حقٍّ، أمَّا الآخَرُ فهوَ منبوذٌ.
شرعيَّةُ عرشِ أباطِرَةِ روما مستَمَدّة من القُوَّةِ الخاليَةِ من الحِكمةِ، وعلى الآخَرينَ أن يقبَلوا بِها كيفَما اتَّفَق.
لقد تمادَوا بالوَحشيَّةِ حتَّى الأمر لم يَعُدْ يُحتَمَل.

في ذلِّ الزَّمَن الرَّديءِ على العالَمِ، أطَلَّ وَجهٌ صبوحٌ، راجِحُ العَقلِ والهُدوءِ، يعمَلُ بتَأنٍّ، شعارهُ العَدلُ ومساعَدَة الضّعَفاء.
إنَّهُ اسكندر ساويروس.
لقد اعتَلى عرشَ روما، وهوَ واثِقُ الخُطى في أواخِرِ آذار سنة ٢٢٢.
اسكندر ساويروس، من عَرقا، جنوبي خليجِ عكَّار.
عملت جدّتُه جوليا ميزا بكامل قدرتِها، حَتَّى أوصلَتهُ إلى الحُكمِ.

جوليا امرأةٌ فولاذِيَّةٌ، بعيدَةُ المرامي والأهداف...
رأت أنَّ حفيدَها الحاكِم الإمبراطور الآغابال، سيّئ التَّصَرُّف، لا يَعرِفُ أُصولَ الحكمِ والسّياسة، فإنَّهُ غيرُ مُبالٍ بشؤونِ البَشَرِ. كانَ هَمّه الوحيد جعلَ بلاطِه معبَدًا للتَّقاليد المَرفوضَة. على أنَّ جوليا راحت تراقِبُ القَضايا بدقّة مُتناهِيَة، وكانَ قرارُها الأخير اختِيار اسكندر في سدَّةِ الحُكم، وقد تَمَّ ما أرادَتْ، وما خَطَّطَتْ له.
طلبتِ الهُدوءَ من سُكّانِ المُقاطَعاتِ، ووعدَتهُم بالسّياسةِ الحكيمَة، هذا يعني أنّ البِلادَ لم تَكُن مستَقِرَّةً، يسودُها الطمأنينة.
عبر هذا الجَوّ المفعَمِ بالاضطِرابِ، طلبت جوليا قبل فواتِ الأوانِ إلى الآغابال بأن يتنحّى عن الحُكمِ، ويتَبَنَّى اسكندر ساويروس حاكِمًا مكانَه.

كانَ طلب جوليا ميزا غير مقبول من الآغابال. وهوَ في فترةِ تفكيرٍ وتأمُّلٍ، عاجَلَهُ أحدُ الحُرَّاسِ بخنجرٍ قاتِلٍ، فَكانَ من الطَّبيعيّ أن يؤولَ العَرشُ إلى ابنِ خالَتِه اسكندر وهوَ على مشارِفِ الخامسةَ عشرةَ من العُمر، على رغمِ حقدِ الرّومانيين على الشَّرقيين.

كانَ يَعرِفُ الفَتى الحاكِمُ مقدارَ حقدِ الرُّومانيين على أهلِ الشَّرقِ. في هذا الظَّرف، فأوصَتهُ جدَّتهُ جوليا بالعَدلِ والمَحَبَّة، ففعل...
لقد تَحاشى الكِبرياء، والاعتداد بالنَّفسِ، والتَّفَرُّد بالحكم.
لم يتظاهَر مطلقًا بأنَّهُ الحاكِمُ القابِضُ بِزِمامِ الأُمورِ وحدَه، من ناحيةٍ ثانيَةٍ لم يَحفل بِهِ الرُّومانيّون.

إنَّه استَطاعَ من دونِ ضَجَّةٍ تُذكَر، أن يُعلِنَ الديموقراطيّةَ في البِلادِ، والإصلاحَ، وأن يَنشُرَ العَدالَةَ الاجتِماعِيَّةَ في كَفَّتي ميزان، وهذا ما كانت تحلم بِهِ المُجتمعاتُ الرُّومانيَّةُ.
بلى، الديموقراطيَّةُ أخَذَت مركزَها الصَّحيحَ في عهدِهِ.
كانَ مُخلِصًا في كُلِّ أعمالِه، تقيًّا ورِعًا من دون تعَصُّبٍ لدينٍ، أو مذهَبٍ أو عَقيدَة. يصلّي صَلاةً سَماويَّةً إلى الله، ويعزى أنَّهُ كانَ يردِّدُ آيَةً حكيمَةً، تقولُ: "لا تَفعَل بالغَيرِ، ما لا تريدُ الغَير أن يفعلهُ بِكَ".

أبدى اسكندر ساويروس تسامحًا مع جميعِ المذاهِبِ والمعتقدات.
وفي عهدِهِ استطاعَ الجَميعُ أن يُمارسوا طقوسَهُم، وأطلقَ يَدهُم في عقد الاجتماعات علنًا. ولَكَم كانَ يُرَدِّدُ: "الدِّين ليس عقيدة، وإنَّما هو روحٌ مفعمةٌ بالمحبَّةِ والرَّغبَةِ في تحقيق العدلِ".

رفضَ هذا الحاكِمُ النِّظامَ العسكريّ، والقوَّة الظَّالِمة الغاشِمة أساسًا للحكم كما فعل سلفاؤهُ أمثالَ سبتيموس ساويروس، وكركلا، والآغابال. فتح قلبَه للنّاس، كلِّ النّاس، وتعاونَ مع ممثّلي الشّعب ونوّاب الأمّة، وأعضاء مجلس الشّيوخ، مبعدًا العَناصر الفاسدة المخرّبة فقط، ثمّ سعى للتّعاونِ المخلصِ مع رِجالٍ عُرفوا بالاستِقامَةِ والصّدقِ وبخاصّةٍ مع أولئِكَ الَّذين يفهمون بالنُّظُمِ التَشريعِيَّةِ.
أكثَرَ من عَددِ المستشارين حوله حتَّى لا يقع بالخطإِ، فناهزَ عددهم المئة، وكان من بينهم رجال قانون نخُصُّ بالذِّكرِ المشترِع اللّبنانيّ الكبير " أولبيانوس الصُّوري".

أولبيانوس، جعل من عهد اسكندر ساويروس، عهد ديموقراطيّةٍ حقّة، وعهد حريّات.
القانونُ يَطولُ الجميعَ، وهو فوق الجميع. ممثِّلو الشَّعبِ يتَحمَّلون تبعاتِ الحكمَ مجّانًا، وعليهم أن يتّجهوا صوبَ الضّعيفِ لحمايَتِه، وإبعادِ شبحِ الفقر عنه، ومحاربةِ الفاقَةِ من كُلِّ جَوانبِها.
إنّه حمى الضّعفاءَ من التَسَلُّط والأحقاد. ورفع شِعار جاء فيه:" يجبُ التَّفتيش عن النّيّة في التَعاقد وراءَ الشّكلِ والكَلام".

هذا الإصلاحُ الكَاملُ، يلزمُه نفقاتٌ باهِظةٌ، والخَزينةُ في عجزٍ.
معظمُ الدَّخلِ كانَ يُصرفُ على كبارِ القَومِ، ورجال الدّولةِ وبنَوعٍ خاصّ على العَسكَرِ والفَيالِقِ المقيمَةِ في المَناطقِ النَّائيَة.
استخدمَ الإمبراطورُ أحدَ الاقتصاديّين اللّبنانيّين لعلّه "باني"، فأبدَلَ هذا الأخير معاشات الجنود، حيثُ منحهم مساحاتٍ شاسِعَةٍ ليستَثمِروها، فإذا فعلوا تمكّنوا من زيادَةِ رواتِبِهِم، وضاعَفوا الإنتاج، ويكون بذلك قد مُنِعَ هدر الأموال...

استَطاعَ اسكندَر ساويروس أن يُحَسِّنَ أداء الإصلاح الاجتِماعي بسرعة متقَدِّمة، فأوجَدَ مؤسّسات تهتَمّ بالتّغذيَةِ، والصّحةِ، والعلمِ، ومن أولى مهمّاتِها توزيع مال الجِبايَةِ والدَّولَةِ على المعوزين، ومنح الفُقَراء قروضًا طويلَة الأمَد، ليتَمكَّنوا من شِراء الأراضي واستثمارِها. وقَد هدفَ من ذلِك حِمايَةَ الفَردِ، وزِيادَةَ الدّخلِ الوَطنيّ، وترفيه المُحتاج.

ثمّ شجَّعَ أبوابَ العلمِ، إذ زادَ رواتبَ الأطبَّاءِ، والأساتذة، كما أنّه وَجّه عنايته وأكّدَ على تَعليمِ الرّياضيّات، والطّبيعيَّات، والفَلك وغير ذلكَ من العُلومِ.

الإصلاحات في عهده كانت رائعة.
ولكن قابَلَ هذه الإصلاحات نفقات موجعة، فتذَمَّرَ الشَّعبُ من ارتِفاعِ الغَلاءِ. وقبل أن يأخذ ترتيباتٍ لِلحَدِّ من غَلاءِ الأسعارِ، أقدَمَ أحَدُ رِجالِهِ وهوَ من الحَرسِ الإمبراطوريّ، فاغتالَهُ معتَبِرًا أنَّ تدابيره قد ساءت إلى رفاهِيَّةِ رجالِ الحَرَس.

اغتيلَ هذا المشترعُ الإنسانيُّ في عمقِ الإمبراطوريّة.
على أنَّ اسكندر لم ينتقِم لرئيس مستَشاريهِ معتبِرًا أنَّهُ وقعَ في خطإٍ، بيدَ أنَّ الدَّولةَ كانت تستَرخي الجَيش لأنَّهُ خشبةُ الخَلاصِ للإمبراطوريَّة في حُروبِها الَّتي كانت تُشَنُّ من الفارتيّين الفرس وغيرهم من البلدان المجاورة والبَعيدة.
فجأةً وصل اسكندر ساويروس إلى إنطاكية، ووجّه بعضَ الحملاتِ العسكَريَّة على الفارتيّين، نجح في بعضِها وخسر في بعضِها الآخر، وفي أيِّ حال ضعضع التَنظيمات في العِراق وسورية وأوقَف الخطر الفارتي.
وفيما هو يَجمعُ نفسَهُ والجَيش، جاءَهُ رسولٌ يعلمُه بتهديدٍ آتٍ من الغَربِ. الجرمانيّون يعلونَ سقفَ تهديدِهِم، فهَبَّ اسكندر ليقمعَ حركاتِهِم على حدود غاليه.

وبينا كانَ في مدينَةِ مايانس، ثار عليه ماكسينانوس اليونانيّ على رأسِ فرقةِ جيشٍ كان قد أنعمَ اسكندر عليها وعليهِ بالمالِ والرُّتب.
يُقالُ أنَّ ماكسينانوس اليونانيّ كان راعي غنم، فجعلهُ اسكندر قائد فرقة في الجَيشِ.
هذا الرَّاعي الَّذي صَحَّ فيهِ : "اتَّقِ شَرَّ من أحسَنتَ إلَيهِ"، طَعَنَ وليّ نعمتِهِ اسكندر ساويروس فأَرداهُ قَتيلاً وذلِكَ في آذار سنة ٢٣٥.

استلمَ الحكم في آذار، ومات في آذار.
خلال ثلاث عشرة سنة، قَدرَ هذا العظيم أن يملأَ دُنياهُ بالأعمال المجيدة، وأن يبسطَ الإنسانيّةَ والعَدلَ والمَحَبَّةَ والرَّحمَةَ بأبهى معانيها، والدّيمقراطيّة بأبهى مظاهرِها.

اسكندر ساويروس من لبنان.

السُّلطانة نُسَب التنوخيَّة

السَّبعةُ والثَّمانونَ عامًا رَفَعت سلطانةً لبنانيَّةً لتأخُذَ مكانَها المَرموق بينَ أميراتِ لبنان.
تلكَ نسبُ التَّنُّوخيّة.
والِدَةُ الأمير فخر الدّين الثَّاني.

أطلَقَ عَليها اللُّبنانيّونَ لَقَبَ السِّتّ الكَبيرة، لأنَّها سجّلت صفحةً أخلاقيّةً حتّى باتت موضعَ إعجابِ واحترامِ اللّبنانيينَ كلّ اللّبنانيين.
اعتُرِفَ لَها بمكانتِها الاجتماعيَّة، والأخلاقيّة وسديد آرائِها البليغَةِ وبخاصةٍ سياستُها الحَكيمة وشجاعتها في إبداءِ الحكمة والآراء.
أنزلَها أبناءُ لُبنانَ، منزلةَ الَّذي يقولُ من دونِ خطإٍ، فجاءت شهادَةُ العُلماءِ والدَّارِسينَ، ولاسيّما سانتي أحد مهندسي بعثة قزما الثّاني غراندوق توسكانا إلى لبنان.

وُلدَت السِّتّ الكَبيرة في عبيه. أُسرتُها التَّنُّوخيّة، هيَ أوّلُ أُسرَةٍ عربيّة، أمَّتْ لبنانَ وتسلَّمَتْ زِمامَ الإمارَةِ في بِدايَةِ القَرنِ التَّاسِعِ وبقيت مستمرّة حتَّى أوائِل القرن الثَّاني عشر. ذَكَرَ المؤرّخونَ سنة وفاتِها (١٦٣٣) ولم يتَّفِقوا على سنةِ وِلادَتِها، ولكنَّهُم أجمعوا عَلى سبعةٍ وثمانينَ عامًا، فهل ولدَت حقًا سنة ١٥٤٦؟

مَن هو والِدُها؟
لم يَذكُرِ التَّاريخُ شيئًا عَن والِدِها، وإنَّما خَصَّ أَخاها الأمير سيف الدِّين التَّنُّوخيّ ببعضِ الخصائِصِ، وصنَّفهُ بين الأمراء التَّنُّوخيِّينَ القَيسيِّين الأربعة، الَّذين أولموا في قريتِهِم عبيه عام ١٦٣٣ للأمير علي علم الدّين اليمني، فبودِلوا بيدٍ غادرةٍ منه وقتلهُم، وبالعملِ هذا انقرضَ التَّنُّوخيون.

تزوَّجَتْ نَسَب الأميرَ قرقماز حوالى سنة ١٥٧٠، وهو سليلُ أسرةٍ لَها كَرامتُها في لُبنان، عنينا الأسرة المَعنيّة. فولدَت له فخر الدّين الثَّاني ويونس.
بُعَيدَ حادثَة سلب الأموال السُّلطانيّة في جون عكَّار، والمصائب الشُّوفيَّة الَّتي تركَت بصَمات من معانيها الحقد، وموت الأمير قرقماز في مغارةِ الشّقيف لشِدَّةِ تأثُّرِهِ على البِلادِ الَّتي نُكِبَتْ بأبنائِها وأرزاقِها ومرافِقِها. وممّا قالهُ المؤرِّخونَ أيضًا، إنَّ ابراهيم باشا عرف مخبأهُ، فأشعَلَ حطبًا أخضرَ في فوهَةِ المغارَةِ، حتَّى قضى الأمير اختِناقًا.
ترَكَ الأمير قرقماز ولدينِ قاصرينِ.

فخر الدّين ويونس.
الأوَّلُ في الثَّانيةَ عشرةَ، ويونسُ في العاشِرَةِ.
خافَتْ أمُّهما عليهِما من الخيانة، أو وشاية يمنيّة، فيفتك بهِما الباشا. في هذِهِ الأثناء فكَّرت أن تهربَ بهما من الشّوف إلى مكانٍ أمينٍ حريز.

اختلفَ أهلُ التَّاريخِ في أمرِ تخبئتِهما.
على أنَّ المؤرّخَ الكبير عيسى اسكندر المعلوف يُشيرُ إلى أنَّ أمّهما نسب وشقيقها الأمير سيف الدّين طلبا إلى الحاج كيوان نعمه من دير القمر، وهو حافظُ ودّ الأمير قرقماز ومدبّره الأوّل أن يخبّئَهما في ولايَة يَمَنيَّة ليخدعَ القَيِّمينَ عليها، إذ لا يخطُر على بالِهم أنّ هذين الأميرَين القَيسيَّين يلجآن إلى ديارِهم، فحملهُما قاصدًا بلادَ عكَّار. وهو في طريقِه، صادَفَ صديقَهُ أبا صَقرِ الخازِن، في إنطلياس، فقدر هذا الأخير أن يقنعهُ بأن يتركَ الولدينِ بعهدتِه. فرضيَ الحاج كيوان، ومن دونِ مماطلة وتسويف. حملهُما أبو صقر الخازِن إلى قرية بلّونة الكسروانيّة، المطلَّةِ على البحر، وقد اكتَنَفتها الأشجار.

هناكَ في بلّونة،
عاشَ الولدانِ في كَنَفِ أبي صقر.
ربّاهُما كما رَبّى أولادَهُ. فَمكَثا في رِعايَتِه سحابَةَ ست سَنَواتٍ.
سيف الدّين الخال، حافَظَ بهدوءٍ وضمنَ ولاية والدهما.
لمّا استقَرَّتِ الأوضاعُ بعضَ الشّيءِ، وأبعَدَ شرّ اليمنيّين، أرسَلَ بطلبِهما، ودرّبَ فخر الدّين على الإدارَةِ، أمّا الأمير يونس فقد علَّمَهُ أُصولَ الفروسيَّةِ والقِتالِ، وسلّمهما رسميًّا الولايَة الإرث.

حكَمَ الأمير فخر الدّين وهو صغير السّن.
هذا الفَتى الرّخص العود، راقبهُ عدوّان لدودان: الأمير منصور بن الفريخ حاكِم البقاع ، ويوسف باشا سَيفا، حاكم عكار وأمير المنطقة.

السّت نسب كانت على علمٍ بما يضمرُه كلُّ واحدٍ من الاثنين.
لقد وصفَها المدوّنون بتوقّدِ الذّهنِ والفكرِ والمعرفَةِ المُسبَقَة، وبعدِ النَّظَر.
أدارَتْ بحكمتِها ومقدرتِها سياسة ولدها بين الألغام والأخطارِ المحدقَةِ بِها، وبحكمتِها العظيمةِ تمكّنَتْ هذه العظيمة من الوصول إلى المبتغى.

قالَ الرَّحالة الإنكليزي جورج ساندس: "إنَّ ولدَها لم يَكنْ يشرع بقتالٍ، ولا يقدم على عملٍ عظيمٍ إلاّ بعدَ استرشاده إيّاها وأخذ رأيها".
وقالَ آخَر، لعلّه سانتي: "إنَّ الأمير فخر الدّين، يقرّر ما يريدُهُ مستلهِمًا رأي والدته".
وممّا قالَهُ المؤرّخون بإجماعِ القَول: إنَّ الأميرَ كانَ يُحِبُّ أمَّهُ حبًّا لا يوصفُ، ويحتَرمُها احترامًا لا حدودَ لهُ، ثُمَّ كانَ يعترفُ بمواهِبِها الَّتي عمل بوحيها، وقدراتِها.
كثرةُ احترامِه لها، جعلَهُ يُسلِّمها زمام الحُكمِ في غيابِهِ عندما سافَرَ إلى توسكانا، وسطَ تساؤلاتِ النَّاسِ، لماذا لم يُعطَ الحكم لأَخيه يونس، أو لولدِه عليّ، وكِلاهما في حضور.

ومن عظيمِ مآتي هذه القديرة أن ألهمت ولدَها جمعَ إقطاعاتِ لبنان الخمس عشرة الَّتي حكمها، ومن مآتيها أيضًا ما فعَلتهُ يومَ كانَ ولدها في توسكانا، في هذه الأثناءِ أقدَمَ أحمد باشا الحافِظ والي دمشق، عدوّ ولـــدها، على ضربِ إقطاعَـــةِ الأمير المعنيّ الغائِب، بخمسينَ ألف

مقاتِل، مزوّدينَ بالأسلِحَةِ الكامِلَةِ والعتادِ والمَدافِع، فقصَدَ أوّل ما قصدَ قلعةَ نابلس، فلم يقوَ عليها، ولمّا عجز حوّل مقاتِليهِ صوبَ قلعةِ الشّقيف ظنًّا منه أنَّ الكنوزَ المعنيّة هناك، ولكنَّها امتنعَت عليه وردّته بمدافِعِها وألغامِها، وقد مكثَ إزاءها أربعةً وثمانين يومًا، فلم يفلح، لأنَّ القُوَّة كانت مدهشة، فحنقَ وعزمَ على تدمير الشّوف.

تدمير الشّوف أرضى الدّولة العُثمانيّة.

أرسَلَ الحافِظُ رجالَه يعيثون في البلاد فسادًا.

أحرقوا المنازل والممتلكات، وقطعوا الأشجار، وأحرقوا الأخضَر واليابِس.

على وهجِ النَّارِ، وأزيزِ المَدافِع، اغتَنَمَ فرصتهَ يوسف باشا سَيفا عدوّ المعنيّين، فزوّد ولدَه بعدَّة الدّمار، وأرسله إلى الشّوف ودير القَمَر ليحرقَ البقيّة الباقية من الخيرات والأرزاق والممتلكات، ويدمّر قصر الأمير المعنيّ.

تجاه هذا الأميرِ السَّيِّئ طلب الشّوفيّون والدّيريّون إلى الأمير يونس أن يرسلَ السّت الكبيرة إلى والي دمشق الحافظ، لأَنَّ وحدَها قادِرة أن تنهي الصّعبَ على البِلادِ بقدرتِها وحكمتِها وحسن سياستها.

انطلقت السّت نسب مع ولدها يونس إلى بانياس بصحبة أكثر من ثلاثين شيخ عقل سنة ١٦١٤.

قابلتِ الحافظ برصانة الحاكم المسؤول.

أَدهشته حجَّتُها وقوّة شخصيَّتها.

عرضت عليه المالَ مقابل الهدوء، ورفع النيران والتّدمير عن بلادِ الشُّوفِ ودير القمَر، والقِلاع، ومن شروطِها الرّئيسة ترك البلاد حرّة.
رأى الحافِظُ طَلَبَ الستّ الكبيرة في مكانِه، لأنَّ وضعه أصبَحَ غير سليمٍ. جيشه تعب، والبرد أهلكَ رجالَه، وخسائرهُ لَم تَعُد تُطاق، أمامَ الأمير عليّ ابن فخر الدّين، ولأنَّ الوضع فرضَ نَفسَهُ على الجَميع، دفعَت الستّ نسب قِسمًا من المال، وأبقت قِسمًا يُدفع في وقت لاحق.
تقولُ الأخبارُ المُتداولة: إنَّ أميرتنا العظيمة، عِندَما رأتِ الحافِظ، فرضَتْ شَخصيَّتها، وأنَّبَتهُ على فعلتِهِ المجرمةِ وتخريبِ البِلادِ الَّتي ما توانَتْ عن دفعِ الضَّرائِبِ والجِزيَةِ.

بعدَ الاتّفاقيّة بينَ الستّ الكبيرة، والحافِظ، وجّه هذا الأخير أحد مدبّريهِ مصطفى قره آغا، ليجمع الجيش ويبعدهم عن أرض الشّوف، ولكنَّه فوجئ بحسين باشا سيفا الَّذي أحرقَ القُرى الشّوفيّة ومنازلها، وكانَ على وَشَكِ إحراق قصر فخر الدّين.

استطاعَت الستّ نسب بتطلّعاتِها أن تنقذ البِلاد من الخَراب. وبعد، لا تَسَلْ عن عبقريّتها وتضحياتها في سبيل الشّوف ودير القمر.
ولكن من الأعمالِ غير المقبولة، بعد انصراف الحافظ، أن تُحمل الأميرةُ إلى قلعةِ دمشق رهينةً حتّى تدفع الأموال المتبقّية، ويُقال: إنَّ الأميرَ يونس دفع المالَ مرّتين، وبقيَت رهينة حتّى عُزلَ الحافظ عن مركزه، وتولّى الحكم بعده جركس محمد باشا بِكلُربكي، مع بعضِ المستشارين.

الحاكم الجديد، كان صديقًا لفخر الدّين، لذا أعادَ أُمَّهُ مكرّمة إلى دير القمر، وقد سلّمها رسالة إلى ولدِها صديقه، يطلب فيها إليهِ أن يعودَ إلى بِلادِه، وعَلى الرّغم من ذلكَ، بقيَ الأمير اللُّبناني متردّدًا، حتَّى أرسَلت أمّه بطلبه تقول: "إنّنا بقينا محبوسين في قلعة الشَّام إلى أن منَّ الله علينا فأطلقنا الحُكّامُ وعُدنا إلى دير القَمَر. وأنا اليَومَ امرأةٌ كبيرةٌ أريدُ منك أن تجيء لأراكَ قبلَ موتي".

عادَ أميرُنا الكبير مزوّدًا بثقةِ والدتِه.
بلى، الأميرةُ الَّتي ما عرفت إلاّ الشّهامَة، والحزم، والشَّجاعَة، والمعرفة الشّاملة.

ومنَ المُرَجَّح أنَّها توفّيت في قصر ولدِها فخر الدّين في دير القمر، وإذا صَحَّ هذا القول، فإنَّ رفاتها اليَوم تَحتَ القبّة المعنيّة الَّتي لا تَزالُ قائِمةً حتّى هذا التّاريخ.
قال العارفون أنَّ موتَها كان مؤلِمًا على الأمير اللُّبناني، وبمَوتها سنة ١٦٣٣ فَقَدَ البركةَ والعونَ والرّأيَ والهِداية.

بَلَدُ الرُّجولَة

اسمُها اليَوم "قوسايا"، بَلدة عُمرها مئاتِ السِّنين، تَستَريحُ على سَفحِ جَبَلٍ، قُبالَةَ الخَطِّ الفاصِلِ بينَ سوريا ولُبنان.

اختَلَفَ عُلماءُ التَّاريخِ على تَسميَتِها، في القَرنِ الرَّابع عشَر للميلاد، منهم من قالَ: إنَّ كلمة "قوسايا" عبريَّة، تَعني فأس الحَطَّاب، ومنهم من رَدَّها للجذر الرُّوماني وتَحمِلُ معنى بلد الرُّجولة.
المعنَيانِ فيهِما رُجولة.

عُرِفَ عن بَنيها، طول القامَةِ وضخامتِها. أهلوها عملوا لها العجَبَ. كان بدء العملِ، أن هربوا من أعالي صَنِّين، لأنَّ "جنَيْد" قَتَلَ الآغا العُثماني "قرقمشا" منفِّذ مشيئة السُّلطان في لُبنان.
أخذوا بَلدَتَهُم عُنوةً، لأنَّها تَحملُ المعنى المُحَبَّب لهم، وحوَّلوها إلى جَنائِنَ خَضراء، وبساتين مُتَرامية، حتَّى أضحتْ كتلة جَمالاتٍ مبثوثة بينَ القُرى المُتناثِرةِ في البقاعِ.
استطابَ المَعنيُّونَ فيها، وقبلهم مُلوكُ صيدون، صيد الحِجالِ والسِّباعِ، كما أمَّها الرُّومانُ للغايةِ ذاتِها.
قصدها شَعبٌ كثيرٌ، حُبًّا بالاستطلاعِ، نذكُرُ على سبيلِ المِثالِ لا الحَصرِ، "بيريت" و"هلتيلاس".

قيلَ: إنَّ "زنوبيا" ملكة تَدمُر، فَضَّلَ طبيبُها ابن سناء لَها، تمضية بضعة أسابيع في المَكانِ المَكانِ المُشادَة عليهِ القَرية حاليًّا، لتَستَردَّ ما فَقدتهُ من عافيَتِها، إثرَ مَعارك كانت وراءها. بُعَيدَ النَّصيحةِ الَّتي لاقَتْ استحساناً في نفسِ المَلِكةِ، رُفِعَتِ الخِيامُ لاستِقبالِ المَلِكَةِ المَحبوبةِ.
الطَّبيعة والمَكان أذهَلاها.
لم تَلبث أن غادَرَت المَكانَ بَعدَ فترةِ استجمام، وفي نَفسِها دافِع العَودة.
إنَّما ظُروفُ المَلِكَةِ حالَتْ دونَ الأوبةِ، وَقَضَت.

بعدَ وفاتِها بِخمسٍ وعشرينَ سنة، عَثَرَت ابنتها "ليال" على مذكَّراتٍ، تضمُّ الكثير من أسرارِ البَطَلَةِ الرَّاحِلةِ...
ممّا قالَتهُ ودَوَّنَتهُ:
– "الموقع محطَّة استراحة للمُحاربين.
"سُكُونُها مِن الإبداعِ... تخومها جمال...
وجاء في صفحة أخرى لمؤرّخٍ جديد:
– "من هنا مرَّ الرُّومان.
"لِقلاعِهم أثَرٌ في جُرُودِها.
هذه مغارة "المدقر" و"عين الشّرشحلة" ومغارة "الهوّة" التي قَصَدَها الأمير فخر الدّين، بعد انتصارات متتالية على خُصومِهِ في عَنجَر. واصطادَ لِتَوِّهِ الحمام البَرِّي.

قال غانِم بن زيدان، أحدُ رِجال البَلدة:

– "زنوبيا" ملكة تدمر كانت وراء تسمية بعض الكُهوفِ والمَغاوِر.
والكَلامُ نفسُهُ رَدَّدهُ رجلٌ من البَلدَةِ يدعى "معارِك"...
رحلتي في هذه القَريةِ، لا لانتِهاء.

"نمر" شقيق "جنيد" قاتل الآغا، رَفَعَ قَصراً، بقي إرثاً لولَدِهِ "سليم" المُلحَقَةِ بِهِ كِنية السُّلطان، أو الفَتى الأشقَر...
في "قوسايا" ستسكُن؟ سألت الحطَّابة ماريديا سليماً بن نمر.
أجاب:
– نَعَم. في البَلدَةِ الَّتي لها وَقْعٌ في قلوبِ النَّاسِ.
سأسكُنُ في جِوارِ أهلي. في بَلَدِ الرُّجولةِ.
– ينبغي أن تكونَ مفتولَ السَّاعِدِ، والسَّيفُ في منتهى الحُضور.
– إعلَمي يا ماريديا أنّني من جَبَلٍ تَحَدَّى الأرضَ. حَسْبُ أرضي لُبنانيَّة.
انصَرَمتِ الأعوامُ، واشتَرَكَ "السَّليم" في تَحريرِ الأرضِ من العُثمانيِّين.

قُتِلَ خلقٌ كثير، والفتى الأشقَرُ، يمضي، كما الأسطورة في دوام .
لوَّحَتهُ شمسُ ذلكَ الصَّيف، واشتَدَّ ساعدهُ وصَلب، وبعد لأيٍ في عشيَّة يوم، قدر أن يُبعِدَ عن القريةِ وهو في موقعِهِ فرقةً، قد خَلَّفَتْ وراءها بعض القتلى.
بندقيَّته الألمانيَّة قَلَّما تفارِقُهُ، تتوسَّد صَخْرَةً دهريَّة.
أملهُ أن يبقى لُبنانُ مُعافى...

أحبَّ الوَطَن كما لا أحد، وكذا المئات في بلد الرُّجولة.
زوجَتَهُ اختارَها أن تكون "سليمة"، هي الأخرى ترمي ولا تخطئ.
طاهِرة نقيَّة كالثَّلجِ المُتشَبِّثِ بصنِّين، وكثيراً ما كان يعجبُها اسم "نمر" فَفَضَّلَت أن يكون بكرها بهذا الاسم.
مضت السّنون. طرحت واحِدَة من سلالة ماريديا، على واحد من بلد الرُّجولة، بُعَيدَ الحَربِ الكَونيَّة، سؤالاً، مرَّ بِبالِ جَدَّتِها من قَبل:
– إذاً. سيطرد كلّ غريب من بَلَدكم؟
– نعم سيطرد الغَريب لتسكن النُّمور والأسودُ.
عادَ طيف الحطَّابة يظهر، وكُلَّما التقى طفلاً يسأل لهيفاً:
– يا الَّذي من بلد الرُّجولة، ما زالت قِممكُم تشمخُ؟
حتَّى إذا كان عهد العُمران، وازدِهار القُرى، فإنَّ "قوسايا" قاسمت الطُّموح، وبقيَت هي على الصيت، يزيد من اعتِزازِ بلد الشَّهامة والشَّباب.

إنَّ اسم "قوسايا" لَكبير.
جديرة بأن تستأنِفَ دور المَجدِ، وإن بدا على وَجهِها مسحة التَّعَبِ...
ثمَّةَ حكايات متناقِلة، أنَّ طيفَ الحطابةِ "ماريديا" ظهَرَ لآخر مرَّة في العشرينيّات على وجهِ صبيَّةٍ كقَلبِ الصُّبحِ، وعلى مَقرُبَةٍ من "عين الحلاوي" ومرَّة أخرى على وجهِ فتى أسمر بالقُريبِ من "عين الكراد".

وما زالتِ العَجائِزُ، حتَّى اليوم، تنتَظرُ هذا الطَّيف.

جنَيد كعدي رجلُ الرِّيادة والبطولة

أمّتْ عائلةُ آل كعدي[1] بلدةَ بسكنتا[2] الهانئةَ قربَ جبل صنِّيـــنَ[3] منذُ مِئاتِ السِّنين، من منطقةٍ غسّانيّة.

جاءَ في تاريخ بسكنتا وأُسرِها للخور أسقف بطرس حبيقة:" عائلة كعدي هي مِن عائلاتِ بسكنتا القديمة...
نزحَ جدودُها إلى بسكنتا... تفرّع منهم أبطالٌ مغاويرُ خدموا الأميرينِ يوسف وبشير الشَّهابيّين.

---

[1] عائلة كعدي بطنٌ من بني غسّان. جاء في دراسةٍ عن الأُسرِ الغسّانيّة للشّيخ عبـــد القادر المغربي، وهو من هو في فقهِ اللّغةِ العربيَّةِ والفقه الإسلامي، في الجامعة السّوريّة قال منذ سبعين عامًا في معنى عائلة كعدي:
كَعَدَ كَعدًا، العسل اشتارهُ بالوعاء، والياء نسبة أي من يجني العسل، وهي قبيلة مـــن بني غسّان.
إذًا ما قالهُ الخور أسقف بطرس حبيقة أنّ عائلة كعدي هي من عائلة حدّاد، هذا خطأ تاريخي كبير، والعكس هو الصّحيح كما جاء في بعض المراجِع.

[2] "بسكنتا": اسم آرامي ومعناه بيت العدل.

[3] "صنّين": اسم كلداني ومعناه مركّب من لفظتين:"سين" ومعناهُ نور و"نين" ومعناه القمر. فيكون معنى صنّين: نور القمر.

نشأَت منهم في بسكنتا عائلةٌ كبيرةٌ، رَحَلَ قِسمٌ كبيرٌ منهم إلى قوسايا[٤] (قضاء زحلة). ولا يزال سكَّان قوسايا يفاخِرون بأصلهم البسكنتاوي... وبنو كعدي من الأبطالِ المعدودين. اشتهر من هذه العائِلةِ كثيرون، منهم:

الشَّيخُ جنيد الكعدي، البطلُ المغوار، والفارس المعروف. اشتهر بموقعةِ الجرمق أو الزّهراني سنة ١٧٧٠ الَّتي أثارها الأمير يوسف الشَّهابي، وكانَ بإمرتِهِ عشرون ألف مقاتل لبناني ضد متاولة جبل عامل[٥]. وجاء في بعضِ المراجِعِ الأُخرى، أنَّهُ أُعطي مدَّةَ ثلاثَة أشهرٍ للقضاء على الأعداءِ الأَخصام، فقضى عليهِم بعشرين يومًا فقط، وبعد هذا الانتِصارِ السَّاحِقِ، طُلِبَ إلَيهِ أن يأخُذَ بسكنتا مقرًّا دائمًا له ليبقى قريبًا من الإمارةِ، فرافقَهُ جزءٌ من عائلة آل كعدي، وبقيَ القسم الآخر في قوسايا ليحافِظــوا على الإرثِ في كلا البلدَينِ، كما أنَّهُم بقوا في

---

[٤] "قوسايا": عُرِضَتْ لسكنِ آل كعدي قريَةُ أبلح أو نيحا في البقاع إبّان نزوحِهم من بسكنتا، ففَضَّلوا بناءَ قوسايا قريَتهم اليوم، لأنَّها قريبة من غاباتِ السّنديان وبعــض الينابيع الغزيرة. ومعنى لفظة قوسايا في اللّغاتِ القديمَة، فأسُ الحَطّاب، أو بلدُ الرُّجولة. تساوي مساحة قوسايا قدر خمس قرى تقريبًا. يمتدُّ حدودُها من السّاحور البقــاعي، حتَّى حدود قرية معدر السّوريَة.

أمّا سببُ رحيل بعضهم، فيعودُ إلى مقتل (كاخي المير أي المُدبِّر) وذلك لثأرٍ لا بُــدَّ منهُ.

[٥] راجع تاريخ بسكنتا وأسرها، بقلم الخور أسقف بطرس حبيقة ص ٢٩٦.

القُرى اللُّبنانيّةِ الكثيرةِ الَّتي استقرُّوا فيها، كمشغرة، وزحلة، ورياق، ومرجعيون، وبعض قُرى المتن الشَّمالي وغيرها.

فارس مراد الكعدي، المشهود له في الكرم، والتّوجيهِ.

الخوري ابرهيم الكعدي الأَوَّل[٦] الَّذي أَصلَحَ ذات البَينِ هو والخوري موسى كرم (المطران بطرس) بين أهلِ زحلة وحكومة الأمير بشير المالطي على رسم الذّبيحة.

الخوري ابرهيم الكعدي الَّذي خَدَمَ حَدَثَ بيروت وولد المحامي أسعد الكعدي.

فضل الله الكعدي الَّذي كان من وجهاء البلدة.

الأستاذ كعدي فرهود كعدي المحامي الَّذي ملأَ دُنيا لبنانَ والعرب بمقدرتِه. ذاكَ الَّذي أتقَنَ العَرَبيَّةَ أُصولاً وإنشاءً وأَصبَحَ من كتبتِها وخطبائِها.[٧]

صبرا الكعدي وقد امتازَ بقوَّةِ زندٍ لا يُقهرُ، وبقوَّةٍ بدنيَّةٍ هائلةٍ، وله أفضالٌ في ثوراتِ الفلاّحين الناجحة. جاءَ في الأقوالِ:

العيلة لأنجبتْ صبرا الباري قدر الله صبرا
بعد تلات أربع خيّات عاد جدّي الجامع صبرا

---

[٦] جاء في مخطوطة له تقول: تفرّعَ من عائلةِ آل كعدي: بيت أبي عماد، سليم، الأعرج، شرارة، وبطن من بيت الحداد، عيد، رزق، الخوري، وبعض العائلات الأخرى.

[٧] راجع تاريخ بسكنتا وأُسرها. بقلم الخور أسقف بطرس حبيقة ص ٢٧٠.

بالعودَةِ إلى جنَيْد الكعدي.

لقد طلبَ إلى عائلتِه إلى جانبِ امتِشاقِ السَّيفِ من أَجلِ لبنان العزّة، المحافظةَ على أعراضِ النَّاسِ، وحسنَ الضِّيافَةِ والكَرم، وعملَ المعروفِ، وغيرَ ذلكَ من الصِّفاتِ الحميدَةِ المتوارثَةِ مِن جيلٍ إلى جيلٍ.

قَدِرَ جنَيْد وهوَ في الثَّلاثين من عمرِه أن يكسبَ ودَّ واحترام المتنيّينَ والكسروانيّينَ، ومن تعرّف إليهِ من اللُّبنانيّين، الَّذين لمسوا فيه الصّدقَ والإقدامَ والإيمانَ باللهِ، والبطولة.

مع جنَيْد كعدي، انتقلت أسرة آل كعدي إلى السّياسة، والدِّفاعِ عن الوطنِ والكيانِ.

إنَّهُ ولا جدال مغوارٌ ووجه لبنانيٌّ رهيبٌ. طفولتهُ تدلُّ إليه.

تمرَّسَ منذُ صِغَرِه بالفُروسيَّةِ في منطقة عيون بسكنتا، الَّتي أصبحَتْ في ما بعد ملكًا لعائلتِه.

تعلَّمَ امتِشاقَ السَّيفِ، ولغةَ الرماحِ والحرابِ، أمّا الصّلابَةُ فقد أخذَها عن والده الَّذي تآخى والطّبيعَة، هذا الَّذي كانَ يقصِّبُ الصُّخورَ ليجعلَها مداميكَ صالحة للبناءِ.

وممَّا قالَهُ أيضًا: "لا تخف لبنان، ولا تخافي بسكنتا، لقد قلنا لأولادِنا وأحفادِنا أن يكونوا في عِدادِ المُدافعينَ عنِ الأرضِ اللُّبنانيّةِ دائمًا، والسُّلوك في الجنديَّة، لأَنَّ قَدَرَ لبنان أن يكونَ سيفُهُ أبدًا خارِجَ القراب، على أن يكونَ السُّلوكُ كاملاً.

الكعديُّ رفيقُ الحُسامِ، والبُندُقِيَّة، وما همّه إلاّ المَعارك الرَّابِحة الَّتي ترافقُها الثّقة بالنَّصرِ.

في أيِّ حال. نهجَ جنَيْد كعدي سياسةَ الوفاءِ والأَمانَةِ.
كما أنَّهُ عرفَ كيفَ يقرّبُ أصدقاءَ الأمسِ، ويقفُ إلى جانبهِم، وبخاصَّةٍ في العُمرانِ والرَّفاهيَّةِ، والثَّقافَةِ.
حافظ على أبناءِ عائلتِه ورجالِه، على الكيانِ بالتَّنسيقِ مع بعض الأمراءِ المَحلّيّين. وتشاءُ الصّدَفُ أن وصلتْ بعضُ السّفنِ إلى الشّواطئ اللُّبنانيَّة، فيتراكضُ اللُّبنانيّون للحِفاظِ على الموانئ والشَّاطئ اللُّبنانيّ من الغَزَواتِ، وإذا الواصِلونَ من أهلِ العظَمَةِ والسَّلامِ في آن.

الواصِلونَ، من الآباءِ الغربيِّينَ.
جاؤوا ليؤسّسوا لهم رسالةً تَربويَّةً كبيرةً في لبنانَ، فأكرمهُم جنيد كعدي، ومدّهُم بالمُساعدين، وسهّلَ عليهم عمليّةَ الانتقالِ من منطقةٍ إلى منطقةٍ في الرُّبوعِ اللُّبنانيَّةِ، وقد عمل بوصيَّةِ جدِّهِ جنيد الأوَّل الذي رافق الأمير فخر الدين المعنيّ ببعض مواقعِه، وهو من هو في نَشْرِ العلم إلى جانبِ السّلاح. من هُنا يمكنُنا القَول إنَّ مغاوير آل كعدي وبخاصّةٍ جنيد لهم خدمات جُلَّى في هَذا الحقل.
ثمّ كُشِفَتْ وصيّة لجنَيْد كعدي، لم تُقرأ بسهولَةٍ لقدمِها، ممَّا جاءَ فيها: "وصيَّتي أن تكمِّلوا رسالتَنا، لأنّ لبنان الوطن، ينتظِرُ دورنا الرّياديّ في كلّ المجالات".

وبحديثٍ لأحَدِ أفرادِ العائِلَةِ، لعلَّهُ الأستاذ كعدي كعدي، مع المونسنيور حبيقة، قال:

– جنيد الكعدي ابنُ بلدَتي، وهُنا يكمن اعتزازي، هو واحِدٌ من مثلّث لبناني، يوسف بك كرم، وطانيوس شاهين، وجنيد الكعدي، ولا أُبالِغ إذا قلتُ جنيد هو الأوّل.[٨]

[٨] ردّدَ المونسنيور حبيقة قولاً جاءَ فيهِ هذا الحُدا، وقد أنشده من سار وراء البطل جنيد كعدي وهو في طريقهِ إلى الحرب:

نحنا زلم المير أحمد دبّاح القوم جنيد كعدي

كرمٌ، الجُرأة والبطولة

شَعرَ اللُّبنانيّون بعدَ سُقوطِ الإمارةِ بانهيارِ القوّةِ الَّتي كانوا يتمتّعونَ بها والجراح العميقة استشرت ثخونتها في عمقِ البِلاد.
حلَّ نظامُ القائمقاميَّتَين، وفورَ العَملِ بهِ رأَوا عدَمَ الاستقرارِ والمقاييس، إضافةً إلى التَّخبُّطِ في المجتمعِ الواحدِ.
ثمَّ تسارعَت فصولُ عامِّيَّة كسروان، فهدّدتِ الفوضى أجزاءَ الوطن، واستعرتْ فتنةُ عام ١٨٦٠ الَّتي أَخَذَتْ منحًى طائفيًا بغيضًا، صوَّرَ معالِمَ الزّوالِ والخراب.

مجتمعاتُ سنة ١٨٦١ الدَّوليّة، لم تُعالِجِ الأُمورَ بالصّوابيّةِ والإنسانيّةِ والشّفافيّةِ والأخلاقِ، بل بقي البلدُ ينزفُ والجراحُ المفتوحةُ ظلّتْ على حالِها.
اقتُرِحَ لِلُبنانَ حاكمٌ أجنبيٌّ.
المتصرّفُ له السّلطةُ المطلقةُ تعضدُه الدُّوَلُ الكُبرى.
هل يحلمُ اللّبنانيّ بالسّيادةِ الوطنيّةِ؟

هل هناكَ طمأنينةٌ وراحةُ بالٍ؟
إزاءَ هذه الهواجسِ، والمخاوفِ، ينتفضُ مارِدٌ جار الأرز، في العقدِ الرّابعِ، يجمعُ في ذاتِهِ العزمَ، والتّعقّلَ، والثّقةَ، واللُّبنانيّةَ.

وقفَ ينادي الاستقلالَ والكرامةَ.
وثبَ ترفدُه العزيمةُ، والرُّوحُ الوطنيّةُ، في خضمِّ العملِ.
إنَّهُ يوسف بك كرم.
رجلُ الجُرأةِ والعنادِ، فهو ولا جدالٌ، بطلٌ.

ولد في إهدن سنة ١٨٢٣. أبواه الشّيخ بطرس كرم حاكم الإقطاعية، ومريم ابنة الشّيخ أنطونيوس أبي خاطر من كِرامِ عينطورين.
عُرِفَ الشّيخُ بطرس بانفتاحِهِ على جميعِ النَّاسِ، وبمحبَّتِهِ للكلِّ من دون تمييز.
اخْتيرَ في إقطاعةِ إهدن ليفصلَ في المنازعاتِ، ثُمَّ اقترحوا الخيّرين أن يكونَ حاكمَ صلحٍ، وفي الوقتِ ذاتِهِ استعانَ به البطريركُ الماروني لتذليلِ المُشكلاتِ الخطيرةِ الَّتي تعترضُ البطريَركيّة.

على الكَرَمِ، وحُبِّ النَّاسِ، والأخلاقِ.
على العاداتِ اللُّبنانيّةِ، وتقاليدِ الأصالَةِ، رَبِيَ يوسف بك كرم.
رأى بأُمِّ العَينِ، أنَّ بيتَهُ مرجعٌ لشؤون الملإ، وأكثر مسؤولٌ عن خدمة مَن يقصدهُ.
كانَ على الشّيخ بطرس والحالة هذه، أن يعتنيَ بتثقيفِ ولدِهِ يوسف.
جَمَعَ قسمًا من المدرّسين وأهلَ الفروسيّة.
معلّمو اللّغاتِ حقّقوا ما يبتغيهِ الوالد، فأحسنوا في الولدِ النّبيلِ اللُّغة العربيّة والسُّريانيّة والإيطاليّة والفرنسيّة، من دونِ أن يُهمِلَ الفروسيّة، وسرّ امتشاقِ السَّيف وحمل السّلاح.

شهِدَ لهُ على ظهرِ الجَوادِ، أشهَرُ فرسانِ عصرِهِ، وبخاصّةٍ الفارِسُ اللُّبناني العَظيم الشّيخ عماد الهاشم العاقوري.

سلّمَ الرّوح الشّيخ بطرس سنة ١٨٤٦.

نوديَ بالولدِ النَّجيبِ يوسف حاكِمًا على إهدن.

يوسف هذا، في الثَّالثَةِ والعشرين من عمره، أَو أَقَلّ ببضعَةِ أشهرٍ.

يوسف بك كرم، حمل أعباء المسؤوليّة الكبرى وهو طريّ العود.

تشبَّثَ بالوطنِ والأرضِ، وبثَّ محبَّةَ اللهِ في روحِ الشَّبابِ، لاعتِقادِهِ بأنَّ الأديانَ السَّماويَّة، وَحدَها الرّادعُ عن الرّذائِلِ، ومدعاة لحُبِّ لبنان، والكيان.

ومِن أقوالِهِ ما معناهُ، إنَّ الطائفيّة بغيضة، واحترام المذاهب ضرورة إيمانيّة، وأخلاقيّة.

إنَّهُ عفيفُ النَّفسِ.

يقول المؤرّخ المطران يوسف الدّبس: إن كَرَمًا دعا سنة ١٨٥٩ على تأليفِ جمعيّةٍ قوامُها نشر كهنةٍ علماء يوقفُ عليها أملاكَه، فتنطَلِقُ إلى التَّوعيَةِ الدّينيّةِ، وقيمها في المجتمعات، لكنَّ سيادَةَ المطران لم يوافق على ذلكَ، وعلى الرّغمِ مِن النّصيحة، فقد أكملَ ما يتمنّى تحقيقهُ.

رأى يوسف بك كرم أنّ من واجبِه أن ينجد مدينة زحله في حوادث عام ١٨٦٠ الطّائفيَة.

مدينة زحله المُحاصرة من الدّروز سقطَت.

قبل أن يصلَ إلى المَدينةِ، أتاهُ خبرُ سقوطِ عروس البِقاع.

بعدَ استتبابِ الأمنِ، وخنقِ الحوادث، عُيِّنَ كرم وكيل قائمقاميّة النّصارى، فاتّخذَ مدينة جونيه مركزًا، أمّا الغايَةُ من وجودِه فهي توطيدُ الأمنِ، وتثبيت الحقوق والأنظمة.

أَبدى جُرأةً وعزمًا لم يألفهما اللُّبنانيّ مِن ذي قبل.

غير أنَّ الإقطاعيّين المحلّيّين لم يعجبْهم لأنَّهُ ساوى الجميع أَمامَ القانونِ، فثاروا عليهِ، ولكنَّهُم لم يقووا على مناوأته، فحطَّمَ مقاومتهم بعنادٍ وصلابةٍ.

في هذه الأثناءِ أوقفَ النّزاعَ القائمَ بينَ الفلاّحين والمشايخ في كسروان.

حاولَ طانيوس شاهين زعيمُ ثورةِ الفَلاّحين أن يقاومَ إبَّانَ تلكَ الفترةِ، فشتَّتَ قوّاتِه وأرغمَهُ على الهربِ، بينما المشايخ أبدوا استعدادًا للتَّفاوض.

تغيّرتِ المعالمُ سنة ١٨٦١.

عُيِّنَ على لُبنانَ حاكمٌ أجنبيّ.

هنا بدأت قضيّة كرم، لأنَّ لبنانَ، مُسَّتْ سيادتُه الوطنيّة باستبعادِ اللُّبنانيّينَ عن المراكزِ الأولى، واستخدامِ التَّدابيرِ الَّتي لا يقرُّها النِّظامُ الأساسيّ.

هَلْ غَضِبَ لأنَّهُ عُزِلَ عن وكالةِ قائمقاميّة النّصارى؟

هل غَضِبَ لأنَّهُ أُبعِدَ عن حاكميّةِ جبل لبنان؟

في أيّ حال، هذا الأمر، لا يقلّلُ من شأنِ الواقعِ اللُّبنانيّ، الَّذي كرّس له نفسه بطلُنا اللُّبناني.
ليستِ المشكلةُ بإبعادِه، وإنَّما المُشكلةُ بإبعادِ اللُّبنانيّينَ عن الحكم، واستئثار الأجنبيّ به.

أوَّلُ عملٍ قامَ به داود باشا كمتصرّفٍ عندنا عزل يوسف بك كرم، والوقوف بوجه البطريرك الماروني يوسف مسعد.
ثمَّ رفع الضّرائب من ٣٥٠٠ كيس إلى ٧٠٠٠ كيس، مع العلمِ أنَّ الكيسَ الواحد فيه خمس ليراتٍ ذهبيّة، بحجّةِ أنَّ الإصلاحات تكلّفُ كثيرًا، وتوجبُ إنفاقًا ملحًّا في البِلادِ.
البطريركُ وكرمٌ رفضا الضَّريبَةَ الجَديدةَ، ووقفا بوجهِ الظُّلمِ.
شعرَ المتصرِّفُ بخطإه، وعلى الفَورِ اتّصَلَ بالصَّدرِ الأعظَم.
فعادَ وعدّل ببعضِ قراراته.
ولكن عبثًا حاول داود باشا استرضاء كرم بعرضِ المراكزِ المرموقة المغرية. في هذه الفترة الدّقيقة، خشي الوزيرُ العُثمانيُّ فؤاد باشا في بيروت، أن يُسافِرَ إلى الآستانةَ تاركًا المتصرّف عرضةً لمناوأةٍ ما. استقدمَ يوسف بك كرم وطلبَ إليه مغادرةَ لُبنان إلى الآستانة، ريثما تنتهي الثلاث سنوات مدّة ولاية المتصرّف.

كرمٌ مراقبٌ من السّلطة العثمانيّة.
انتقلَ إلى برنايا قرب إزمير.
هل يعودُ عام ١٨٦٤ حاكمًا على لبنان كما كان يظنُّ؟

لم يتحقّقْ حلمُه.
رضي العثمانيّونَ على أعمالِ متصرِّفهِم داود باشا في لبنان، فجدّدوا لهُ الولايَة.
رأى كرم إزاء هذه الحالة، أنَّ القضيّة الَّتي ناضَلَ من أجلِها في خطر، وحقيقة وضعِه لا تقبلُ أن يبقى بعيدًا عن أرضِ الوطنِ.
السّياسة مرفوضةٌ إن كانت على حساب لبنان.
صمَّمَ على استئناف النّضال.

وصلَ فجأةً في الثَّاني عشر من تشرين الثَّاني سنة ١٨٦٤ إلى طرابلس، حيثُ استُقبِلَ بحفاوةٍ من النّاسِ الَّذين رأوه، وساروا به فوراً إلى زغرتا.
اهتزَّ في ما بعد، لبنان، لإيابِ ابنه البارّ.
جاءتِ الوفودُ رافعةً اللاّفتات المُنادية بسقوطِ الأَنظمة الظّالمة وداود باشا.
إبعادُ كرم عن وطنهِ عملٌ عِدائيّ في الأساس.
إذًا لا بُدَّ مِن النّضالِ.

عرفَ داود باشا بما يُحاكُ لهُ، وهو في حيرةٍ من أمرِهِ.
إلقاءُ القَبضِ على خصمِهِ ليسَ بالأمرِ السَّهلِ أبدًا.
اتّصَلَ بالآستانة، وطلبَ قوَّةً، تأخُذ مكانها في مدينة جونيه، لمراقبةِ البطريركِ الماروني، وتمنع الاتصالات بين زغرتا وبكركي، وبيروت.

أصدَرَ أمرًا يقضي بإلقاءِ القَبضِ على معارضي السّلطة، وبخاصّةٍ من الكسروانيّين.
لم يطقْ يوسف بك كرم التَّحدِّي السّافر.
مشى بمئتي فارسٍ على رغم العاصفة الَّتي هزّتِ الطَّبيعَة اللُّبنانيّة سنة ١٨٦٦، يتقَدَّمُ المُقاتِلينَ الأبطال على ظهرِ جَوادِهِ "العنزاوي".

في قرية العقيبة، القريبة من جونيه، عسكر في سهل مار ضومط. في هذا الوقت، سار قائد جيش داود باشا، من جونيه برفقةِ ستّ مئة جندي لملاقاة البطل اللُّبنانيّ، وهناك دارت معركةٌ في "بلاطة الغربا" على ساحل الصّفرا بينَ "الطاب" قائد جيش العثمانيّين ويوسف بك كرم، الَّذي رَدَّ بقوّةِ أبطالِهِ الجيش الخصم حتَّى المعاملتين.
قيل: كان في نيّة كرم أن يؤمَّ غزير، وتحديدًا في محلَّة العفص ليؤلّفَ جيشًا قويًّا مع أعوانِهِ الكسروانيّين. لكنَّ قسمًا من أبناءِ بلدَةِ غزير رفضَ التَّحالف معه، وأطلقَ النَّارَ على رجالِهِ فخسر فارسَين من خيرةِ الفرسانِ، ليُرضي" الطّاب". لعَلَّ الأنانيّة لعبت دورَها.

تعقَّبَ داود باشا بطلنا في الشّمال ليلقيَ القَبضَ عليه.
دارت معاركُ عنيفةٌ بين اللُّبنانيّين والعُثمانيّين، أظهَرَ فيها كرم مقدرة أذهلتِ العالم، ولا سيّما في "بنشعي" و"جوعيت" و"سبعل".
رافقتِ المعارك الأهازيج، والقصائِد الزّجليّة.
بلى، القوّةُ الرَّبانيّة، رافقت جيشَ كرم، مع العلم أنَّ عدَدَ رجالِه قليلٌ بالنِّسبةِ للجيش العثماني.

في سنة ١٨٦٧، عندما اتّجه جيشُنا صوب الجنوب، قاصدًا داود باشا في بتدين، كان عدده يقاربُ الأربع مئة رجل.

وهو في بكفيّا، بلغَتِ المتصرِّفَ أخبارُ كرم.

أسرعَ العثمانيّ إلى بيروتَ، واجتمعَ على جناحِ السّرعةِ بصديقِهِ قنصل فرنسا.

وعلى الفورِ طُلِبَ إلى كرم الكفّ عن الحربِ ومغادرة لبنان ووضع نفسِه بتصرّفِ الدَّولةِ الفرنسيّة.

بعد خلوة في بكركي، واتصالاتٍ حثيثةٍ بينَ الأطرافِ، وإعلان القنصل للجماهير سفرَ كرم شرط ألاّ يلحق الأذى بأعوانِه.

على رغمِ الوعودِ والتَّهدئةِ، ثارَ رجالُنا، ورفضوا كلّ المقرّرات الآيلة إبعاد يوسف بك كرم، فاضطرّ هذا الأخير أن يخفّفَ من تشنّج المواطنين، والعسكر.

التَّسوية في بكركي، حفظَت كرامة البطل اللُّبنانيّ.

وداعُ النَّاسِ لكرم كانَ مؤثّرًا.

نزلَ إلى باخرةٍ فرنسيّة خُصِّصَتْ لسفرِه.

في الإسكندريّة (مصر) لقي حفاوةً، لم يلقها آخر من العظماء.

تبارى الخُطباءُ في تكريمِه، حاملينَ على العُثمانيّينَ وداود باشا، وزاره كبارُ القَومِ من محلّيّين وأجانب. ثمّ اتّجهَ نحو مرسيليا، فالجَزائِر، حيث أعدّتِ الحكومةُ الفرنسيَّةُ استقبالاً له يليق بمقامه.

هل تُنسى القضيَّةُ اللُّبنانيّة؟ لا.

جاءَ كرمٌ إلى باريس، وقابلَ الأمبراطور نابوليون الثّالث، ثُمَّ الوجهاء، والأعيان، والوزراء، وعرضَ مطاليبَه، على الرّغم من رضى باريس عن تصرّفات المتصرّف باشا.
ثمّ انتقل إلى بروكسل ومنها إلى فيّنا، فرومة، عارضًا القضيّةَ اللُّبنانيّة بكلِّ أبعادِها، والظّلم الَّذي حاق بها وباللّبنانيّين.
استطاعَ كرمٌ في اليونان، وفي جزيرة كورفو أن يقنِعَ بعض الشّخصيّاتِ اليونانيّة والألبانيّة لمساعدةِ لبنانَ وإنقاذِه من العثمانيّين.
التصوّرات الكرميّة لم تُحَقَّقْ.

السّعيُ المحكومُ بالفشل، جعلَ كرمًا يتوجَّهُ صوب الآستانة.
استُقبِلَ بترحابٍ كبيرٍ لدى الباب العالي.
هناكَ، أصَرَّ على عودتِه إلى لُبنان، مبيِّنًا بجُرأتِه مساوئَ داود باشا.
أمّا وقد زالَ عهدُهُ، فلم يبقَ من داعٍ لمناوأةِ أيّ متصرّف يحلُّ في الوطن.
بادئ بدء تظاهرتِ الحكومةُ العثمانيّةُ بقبولِ طلبِه، لكنَّ التَّنفيذَ لم يقترن بالوعودِ. تيَقَّنَ كرم في ما بعد أنَّها من الخداعِ، والرِّياء.
غادَرَ إلى رومة، بعد يأسٍ وقنوط.
كما أنَّهُ فكّرَ في حلفٍ عربيٍّ، يجمعُ أهلَ المصيبة.

في أيّ حالٍ كان يوسف بك كرم مُعجبًا بلغةِ الضّادِ والحضارةِ العربيّة. وفي اليونان صحَّحَ قولاً للسّفراءِ الأجانبِ، مفاده أنّ تركيّا ما عرفت التّمدن أو التّمدين، قائلاً لسفير ألمانيّ:

– ألا اسمحْ لي أن أُعيدَ على ذاكرتِكَ أنَّ المسلمينَ الَّذين استولوا على إسبانيا كانوا من الأمّةِ العربيّةِ الشّريفةِ.
من البلادِ الأوروبيّةِ، اتّصلَ بالأمير عبد القادر الجزائِري، طالبًا إليهِ أن يسعى إلى تحقيقِ حلفٍ عربيّ قادرٍ على التّخلّصِ من أعداءِ العرب، لكنَّ الأميرَ رأى في الأمرِ صعوبة.

عندما تبدّدَتِ الأحلامُ، والعُمرُ لم يسمح بالنّضالِ الفاعل، والسّابعةُ والسّتون أشرفَت على نهايتها، والتَّعَبُ أنهكهُ، قدم إلى نابولي واختارَ قرية رازينا، حيثُ أكملَ بقيَّةَ عمرِهِ.

ماتَ صبيحةَ ٧ نيسان سنة ١٨٨٩.
تعهّدَ مأتمَهُ الشّيخُ شديد حبيش قنصل الدّولة العثمانيّة في نابولي. على أنَّهُ نعاهُ إلى أهلِهِ، وحفظَ أوراقَه ومقتنياتِهِ بأمانة ودقّة.

نُقِلَتْ رفاتُه إلى إهدن.
وأصبَحَ ضريحُه مزارًا للُّبنانيّين. وفي ١١ أيلول سنة ١٩٣٢، احتفلَ رسميًا بإزاحَةِ السّتار عن تمثالِ بطلٍ من لبنان في ساحةِ كنيسةِ إهدن.

مصطفى آغا بربر والطُّموح

انقضى القرنُ الثَّامنُ، وزالتِ الإقطاعيّة.
ظنَّ الإقطاعيّون أنَّ امتيازاتِهم ستبقى كما يشاؤون، فتمادَوا في غيِّهم، وظلمهم، وتطاولِهم على الأهلين.
لا بدَّ من الحريّة، ونهايةِ عملِ السّخرة.
رأى النّاسُ في حكمِ الفردِ وإن مارسَ القَهرَ على السّكانِ، خلاصًا من الإقطاعيّين والإقطاعِ، لأنَّ ذلكَ سيكونُ بدايةً تساوي بينَ الجميعِ ولو بنِسَبٍ متفاوتة، فإن لم يحصلِ الفردُ على حرّيّته، يكتفي بالمساواة.
لقد استطاعَ الأميرُ الأكبرُ في لبنانَ، أن يأخُذَ مكانَه في قلوبِ رعاياه، لأنَّهُ فرضَ القانونَ على الأهلين، وأخضعهُم لِسُلطانِه.

طرابلس والجوار كانت خارجَةً عن سلطانه المطلق.
ترجّحَ حُكمها مرّةً تحتَ الوصايَةِ العثمانيّة، وأحيانًا متسلّمة تابعة لوالي دمشق.

الشّعبُ في أيّ حالٍ مرهقٌ بالضّرائبِ.
بقي الوضعُ على حالِه، والفاقة تطولُ النَّاس، حتَّى تسلَّمَ الحكم في طرابلس والمقاطعات التَّابعة لَها، رجل وطنيّ، يتمتّعُ بشخصيّةٍ قويّة، أهّلتهُ أن يرتفِعَ من الفقرِ المدقع والضّعة إلى الحكمِ الفرد.

مصطفى آغا بربر، الشَّهيرُ بـــ "بربر آغا"، وجهٌ لبناني.
بعدَ حكمِه المطلق، ساوى بين الفئات وأزالَ الامتيازات ودعا الشّعب ليقولَ كلمتَهُ بارتِياح.

مصطفى آغا بربر.
من عائلةِ القرق الإسلاميّة.
عاشَ أهلهُ في طرابلس، على أنَّ والدَه قطنَ قريَةَ برسا في الكورة.
عملَ والده مزارِعًا بادئ بدء، ثُمَّ ترك برسا، وعاد إلى طرابلس طلبًا لبحبوحة أوفر. بعد مضيّ أربع سنوات في مدينةِ الشَّمال الكبرى، توفّي ربّ العائلة، فاضطرّت زوجتُه مرغمَةً أن تعودَ إلى برسا مع ولديها القاصرينِ مصطفى ومحمّد وابنة صغيرة على ما يظنّ بعض المؤرِّخين.
قال معاصرو مصطفى، إنّه كانَ ربع القامة، حنطيّ اللّون، يتحلَّى بجسمٍ قويّ، وعضلات بطل مفتولة.
خدمَ أهل القرية، رعى مواشيهم وهو حدثٌ، وحرثَ أراضيهم وهو شابٌّ يحملُ رزمَ الحطبِ وخشبَ السّنديانِ على ظهرِه إلى المنازِلِ، ليعيشَ بكرامتِهِ.

قرَّرَ فنَفَّذَ. جمعَ بعضَ المال، فأعالَ بيته جيّدًا، وتمكَّنَ من عملٍ أفضَل. أصبح في ما بعد، تاجر حطب، يستوردُها ثُمَّ يبيعُها. تجارتُهُ هذه حقّقَتْ لَهُ مالاً وفيرًا. ولكِنَّ المالَ على ما يبدو لم يُرضِ طموحَ الفتى مصطفى.

أرادَ التَّقَرُّبَ من أهلِ العظمةِ ووجهاءِ البِلادِ.

دخلَ في خدمةِ عائلةِ مالك في بطرّام، ثمّ في خدمةِ الأميرِ عليّ الأيّوبي في قرية ددّه، وعملَ أيضًا عندَ آل رعد مشايخ الضّنيّة، ثمَّ في خدمةِ آل زخريّا مشايخ حكّام القويطع.

جميعُهم رغبوا في استخدامِ هذا الشّابّ لقوّته، وإقدامِه.

لكنَّ مصطفى رفضَ أن يتزلّمَ لأحدٍ، وهو الطّامِحُ بل القادرُ أن يتسلَّمَ مقاطعةً يَحكُمُها. شقَّ له دربًا في التّجارةِ الحرّةِ، فاستحصَلَ على كفالةٍ من السيّدِ يوسف خلاط أحد التّجارِ الكبارِ في طرابلس، وعلى الأثرِ وسَّعَ تجارةَ الخشبِ، وضمنَ زيتونَ ديرِ البلمند مع ثريٍّ طرابلسيّ، وفتحَ بابًا للاتّجار بين المناطقِ اللُّبنانيّة، ومصابن الفيحاء.

وفّرَ أموالاً تضمنُ له التَّحرُّك.

ثمّ عاودتهُ الرّغبة للتقرّب من الزُّعماءِ، والوجهاءِ، والكبار، فاشترى السّلاحَ، والخيلَ، واتّصلَ بالأميرِ يوسف الشّهابي حاكم لبنان، وعزمَ أن يكون فارسًا مغوارًا في جيشه.

كانَ وفيًّا للأميرِ الشّهابي، وبخاصّةٍ في معاركِهِ الكبرى.

تركَ بربر الأمير يوسف سنة ١٧٨٨. في هذه الأثناءِ تحسّنتْ حالةُ مصطفى المادّيّة، وذاعَتْ شهرتُهُ في الفروسيّةِ والشّجاعَةِ، وامتشاقِ السّيفِ. وبعد عودتِهِ إلى قريتِهِ برسا نظرَ النَّاسُ إليهِ نظرة فيها الكثير من معاني الاحترامِ والتَّقديرِ، ورأوا فيه المثالَ الصَّالِحَ لمن يُريدُ أن يحقِّقَ مبتغاه.

"بربر آغا" فارسٌ لا يُقهر. مكانتُهُ في القلوبِ كبيرَة.
استطاعَ أن يكونَ ملاَّكًا مهمًّا، نظيرَ رِجالِ الإقطاعِ الَّذين تحدَّثَ عنهُم التّاريخُ والبشرُ، وقد رافقَ ذلِكَ، الحديث عن بطولتِهِ وشجاعتِهِ وعدلِهِ، حتَّى خشيه حاكم طرابلس أحمد بك المرعبي، فرسَمَ مع المقرَّبين له خريطة في ١٥ حزيران سنة ١٧٨٩ للقبض عليه.

كثُرتِ المؤامراتُ عليه.
فالأمراءُ الأيّوبيّونَ أخصامه، عقدوا النّيّةَ على اغتيالِهِ، مهما كلّفهُم ثمن اغتيالِهِ، مع كتمِ السّرّ. على أنّ أَحدَهُم خافَ من نتائجِ المؤامراتِ فرأى من المفيدِ أن يبوحَ لبربر بالسّرّ وينبّهُه عمّا يدبّر له، لذا، قصدَ برسا في ليلةٍ طاخيةِ الظَّلامِ، وخاطبَ بربر من نافذةٍ مغلقةٍ قائلاً له:
– يا هذا، تُدَبَّرُ عليك مؤامرةٌ لاغتيالِكَ.
عرفَ بربر كلَّ شيء، فاحتاطَ للأمرِ، وراحَ يعتقِلُ بحكمتِهِ المتآمرين الواحد تلو الآخر، مُنزِلاً فيهِم أشدَّ العقوبات.
الوصولُ إلى الحكمِ باتَ وشيكًا.

ثارَ جيشُ الإنكشاريَّة في طرابلس على القائدِ ابراهيم آغا سلطان، وقد قادَ الثّورةَ كبارُ الإنكشاريّين، مصطفى آغا الدّلبه الَّذي أحبَّهُ سكّان طرابلس، فهبّ بربر من برسا، وتطوّعَ مع الثّائرين، مستخدمًا لباقته في القِتالِ وشجاعتَه، ممّا لفتَ الجميع في تفانيه وإخلاصِهِ.
بعدَ معاركَ ضاريةٍ، أخذت مدينةُ طرابلس تتحدَّثُ عنه بإعجابٍ كبيرٍ، ثمّ انتظَمَ في الجيشِ الإنكشاريّ، وقرّبَ منه العسكر.

الطّرابلسيُّون يَشْكون مِن ظلم الوالي عبدالله باشا.
تلقّى شكواهُم البطلُ بربر، وسمعَ لهم واستعانَ بوالي عكّا الَّذي تربطهُ به صداقةٌ متينةٌ منذ خدمتهِما معًا في جيشِ الأمير يوسف.
أنجدَهُ الأميرُ يوسف على جناحِ السّرعةِ، بالجيشِ والعتادِ، حتَّى تمكَّنَ مِن احتِلالِ المدينةِ وقلعتِها، وأصبحَ الحاكِمِ الرّسميّ لها.
دارت في خَلَدِ الحاكِمِ الجديد، أيّام الفتوّةِ، والفقرِ.
يتذكَّرُ "بربر آغا" الحاكم أنَّهُ خدمَ عند رجلٍ في حدثِ الجبَّة اسمه آصاف، وبعد أن صار حاكِمًا اعتدى أحدهُم على قطعةِ أرضٍ كانَ يفلحُها لآصاف، فضمَّ المعتدي قسمًا من هذه القطعةِ إلى أملاكِه.
وعبثًا حاول آصاف أن يرجعَ حقّه، فقصدَ بربر وعرضَ عليه الأمرَ من كلِّ جوانبِه.

بربر يعرِفُ تمامًا قطعةَ الأرضِ، لأنَّهُ كانَ يشغلُها ويفلحُها ويعيشُ منها، وأكثر، فإنَّهُ اعترفَ بسيّدِهِ القديمِ المظلومِ، فاستدعى على الفورِ أحدَ الكتبةِ، واستكتبهُ شهادتَه، مظهرًا حدودَ قطعةِ الأرضِ.
حمل آصافُ شهادةَ مصطفى إلى المحكمة، وبعد جلسةٍ واحدةٍ لا غير، استعادَ ما اغتُصِبَ منه.
ولعلَّ آلامَ بربر، وفَقرَه، وأيَّامَ الظّلم، هي الَّتي جعلتهُ حاكِمَ الإنسانيّةِ، الأمين على مصالحِ الشَّعبِ، الحريصِ على العدالةِ والمساواةِ أمامَ الحقِّ والقانون.

لقد رفَضَ الامتيازاتِ الإقطاعيّة.

للشّعبِ كلمتُه وحرّيتُه في التّعبيرِ.
لا تشاوف ولا استبداد.
بلى! لقد ضُرِبَ المثلُ بعدلِ بربر.
أمّا سياستُه الخارجيَّة فقد استمدّها من مصلحة لبنان العليا، وصداقاته. ووفاءً منه، ظَلَّ أمينًا على عهدِ والي عكّا الجزّار وناصرَه على أخصامِه، ووقفَ إلى جانبِهِ في أيّامِ البؤسِ والعزِّ.
وما مناوأته للأمير بشير الثّاني ووقوفه إلى جانبِ الأمير يوسف إلاّ من بابِ الوفاءِ، لأنَّهُ لم ينسَ عطف الأمير يوسف عليه عندما كانَ فارسًا في جيشِهِ.
وعبر حكمتِه اتّفقَ مع الأمير بشير الثّاني لأنَّ ثورةً استقلاليّة تنتظرهما، وعلى الرّغمِ من ذلكَ اختلَفَ وإيّاهُ على نواحٍ كثيرة، منها أراد الأمير بشير أن يتغاضى عن تصرّفاتِ ابراهيم باشا الشّاذّة، أمّا "بربر آغا" فقد استاءَ منها ولم يُبدِ مرونة إزاءَ بعضِها وبخاصّةٍ عندما أرادَ أن يبيحَ المسكرات للمسلمينَ في طرابلس.
تُجاهَ عناد مصطفى آغا بربر، قرَّرَ ابراهيم باشا عزلهُ من الحكمِ بعدَ أن أمعنَ في إهانتِهِ وأذيّته.

رأى بربر من الضّرورة أن يلزمَ داره في إيعال، حتّى وفاتِهِ سنة ١٨٣٥. مات وفي قلبِه وصدرِه غصّة من ابراهيم باشا الَّذي لم يحترمْ رأيَه السّديد، وإخلاصَه في سبيلِ نجاحِ الحملة المصريّة الاستقلاليّة.

الثقافة بالمَجَّان

سلسلة كتب أدبيَّة مجَّانيَّة أسَّسَها *ناجي نعمان* عامَ ١٩٩١ وما زالَ يُشرفُ عليها

Ath-Thaqafa bil Majjan

Série littéraire gratuite établie et dirigée depuis 1991 par

Free of charge literary series established and directed since 1991 by

Serie literaria gratuita establecida y dirigida desde 1991 por

Naji Naaman

LOUBNAN: MAJDUN WA TARIKH

LIBAN: GLOIRE ET HISTOIRE

LEBANON: GLORY AND HISTORY

لبنان: مَجدٌ وتاريخ

Août 2009

© ***Tous droits réservés* – All rights reserved – *Todos los derechos reservados*** - ألحقوقُ مَحفوظة

Maison Naaman pour la Culture & www.najinaaman.org